مدرسة مشاغبة

بسم الله الرحمن الرحيم

دوران تشتين

مدرسة مشاغبة

ترجمة : آلاء الجعفري

دار المكتبي

الطبعة الأولى
2020 - 1441

مدرسة مشاغبة

Çılgın OK'lar

دوران لشلين

Duran ÇETİN

ترجمة الآء الجعفري

مراجعة وتحرير مركز التعريب و البرمجة
بإشراف الدكتور غياث المكتبي

قامت دار المكتبي بترجمة هذا الكتاب الصادر عن

Nar Yayınları

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

جميع الحقوق محفوظة

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف 00963112248433 فاكس 00963112248432 ص.ب 31426
الشارقة هاتف 0097165512262 فاكس 0097165512264 ص.ب 3309
e-mail:daralbaraem@gmail.com almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

أيام التسجيل

لقد بقيت مدة قصيرة على افتتاح المدارس . وأولياء الأمور الراغبون بتسجيل أطفالهم في المدرسة يأتي أحدهم ليذهب الآخر . في حين كان الحماس بادياً على وجوه الصغار عند سماعهم عن اقتراب بدء المدرسة .

مكان جديد ، ووجوه وبيئة مختلفة .

هي مظاهر لم تكن مألوفة لدى الأطفال القادمين للتسجيل . وفي الوقت الذي اعتبرها البعض بمثابة ملعب جديد ، كانت المدرسة بالنسبة للبعض الآخر ، مكاناً سيواصلون الحضور إليه بانتظام وفق ما سمعوه من إخوتهم وأخواتهم .

كانت البهجة التي راودت الجميع وتصرفاتهم مختلفة تبعاً لذلك .

ـ انظر يا بني ! من الآن فصاعداً ستأتي إلى هنا وتدرس في هذا المكان . اعمل بجد واجتهاد وستنجح ، وسواها من العبارات كان يردِّدها بعض الآباء والأمهات على أطفالهم .

وفي ظل هذه الجلبة كانت أعداد القادمين والمغادرين كثيفة جداً . أما مَنْ أتموا عملية التسجيل ، فكانوا يتنفسون الصعداء ويرتاحون لفكرة أنهم تجاوزوا الجزء الأصعب والأهم من العملية . كما اعتقدوا أن من حقهم الاستمتاع بفرحة تسجيل طفلهم في مدرسة جميلة جداً ، والتجول معهم براحة داخل أقسام المدرسة .

كان التناغمُ بين الوجوهِ المبتهجةِ ووجوهِ المنتظرين بحماسٍ ممَّن لم يتمكنوا من التسجيل بَعْدُ منعكساً في رواق المدرسة . وبإمالة رؤوسهم إلى الأمام قليلاً ، وبابتسامة ألقى أولياء الأمور التحية على بعضهم البعض كنوع من التودُّد الواجب إبداؤه ربما لأن أطفالهم سيدرسون في المدرسة نفسها . كما أعربوا عن أملهم في أن يستمر هذا التقارب على نحو متزايد . والاجتماع وزيادة تعارفهم خلال الكثير من الأنشطة التي ستقيمها المدرسة طوال العام . بينما كان الرواق المليء بزقزقة الأطفال أشبه بحديقة أزهار مختلفة الألوان .

هذه البيئة الجديدة ، كانت بمثابة منزل جديد بالنسبة لهم . يحاولون اكتشاف عالمهم الجديد من خلال الكلمات التي سمعوها من عائلاتهم . وبينما كان البعض يركض ويلعب بين الصفوف ويجلس على المقاعد كأنما أعجبه المكان منذ الآن بجلوسهم عليها جميعها . كان البعض الآخر يلعب المطاردات وسط استمرار ضحكات أهاليهم .

كانت المدرسة مكاناً مختلفاً في عيون كل منهم . فبالنسبة لأولئك المتعلِّقين بأمهاتهم بشدة كانت فراقاً وحزناً لا مفرَّ منه . إذ لم تكن الجدران الجذابة والملونة والمقاعد النظيفة ومسح المسؤولين والمدرسين المبتسمين على رؤوسهم ذات أهمية على الإطلاق بالنسبة لأطفالٍ لم يسبق لهم أن فارقوا أحضان أمهاتهم حتى ولم يكن لهم أي أصدقاء فيما مضى .

فالمدرسة بالنسبة لهؤلاء الأطفال الذين لم يسبق لهم أن لعبوا حتى مع الطفل المقيم في الشقة المجاورة ولم يجتمعوا به ويشاركوه ألعابهم ؛ ليست سوى بناء ضخم وعملاق من شأنه أن يضيع فيه .

ولهذا ظلَّت أيدي أولئك الصغار المرتعشة ممسكةً بيد أمهاتهم كفرخ طائر خائف معربين عن عدم رغبتهم في الانفصال عن عائلاتهم .

* * *

فردوس

كان من بين أولئك الذين يعانون قلق المدرسة فتاة شقراء ذات عينين زرقاوين ، لطيفة جداً . كأن أنفها الصغير وشعرها الأشقر المجعد يدفعك للاقتراب منها وملاعبتها .

وفي أثناء ذلك توقف مساعد مدير المدرسة السيد أحمد المار من هناك قليلاً . ثم التفت ونظر إلى الفتاة الصغيرة . لقد لفتت تلك الفتاة الممسكة بإحكام بيد والدتها الواقفة بجوار الباب ، والمتلفِّتة حولها بعيون خجولة انتباهه . فتوجَّه إليهم وقال للمرأة التي يعتقد أنها والدتها :

ـ مرحباً ! أهلاً وسهلاً بكم .

فأجابت المرأة المنسدل حجابها إلى كتفيها بكل لباقة :

ـ مرحباً ، أهلاً بكم .

بينما عيون مساعد المدير السيد أحمد على ألطف فتاة في العالم . ولو أبدت اهتماماً صغيراً لكان جثا على ركبتيه ، وانحنى بمحاذاة وجهها ، ولاطفها ولاعب خدَّيها . غير أن الفتاة لم تظهر أي نوع من الألفة والتودد .

لأن محبة الأطفال بالنسبة للسيد أحمد فوق كل شيء . وعلى هذا الأساس تم اختياره للعمل بالتدريس . ونظر إلى والدتها مرة أخرى وقال :

ـ كيف يمكنني المساعدة ؟

وبرفقٍ عدلت المرأة طرف حجابها . وأجابت بأسلوب خجول :

ـ إنها ابنتي ، ننتظر في طابور التسجيل ، مشيرة بعينيها إلى الطفلة القابضة بشدة على يدها . ولن يهدأ لي بال ما لم يتم تسجيلها .

ـ سأل السيد أحمد : هل هي المرة الأولى ؟

ـ أجابت المرأة بصوت مضطرب : نعم .

وبعد تعداد الوثائق المطلوبة من أجل التسجيل أضاف سائلاً :

ـ هل قمتِ بإعدادها ؟

ـ نعم أعددتها ، فمنذ عدة أيام ونحن نسارع من أجل ذلك .

ثم انحنى أحمد بك مساعد المدير جاثياً على قدميه حتى التقى وجهه بوجه الفتاة . فشعر بالبهجة من نظراتها . يا لها من عيون جميلة ونظرات معبِّرة لديها . وهكذا تواردت الأفكار إلى ذهنه مع استمراره بالنظر إليها .

كان جمالاً سماوياً جذاباً ، يُريح الناظرين ويطغى على القبيحين . ألم يكن الأطفال فاكهة الجنة ؟ وزينة الدنيا والسبيل للفوز بالجنة .

فأمسك يديها . ولكنها لم ترغب بذلك وسحبتهما وهربت لتتشبَّث بأقدام والدتها .

غير أن والدتها التي لاحظت محبة السيد أحمد للأطفال ، أمسكتها من ذراعيها وأحضرتها إلى أمامه وقالت لها بحزم :

ـ يا ابنتي ! إنه معلِّمُك .

وعند سماع الطفلة الصغيرة لذلك أبدت نوعاً من الرضا . فحضنها السيد أحمد بين ذراعيه ، وزرع قبلةً على كلا وجنتيها . ثم سألها ويده تلاعب شعرها المجعد باللون الأشقر الذهبي قائلاً :

ـ يا ابنتي الجميلة ! قولي لي ما اسمك ؟

فهزت الفتاة كتفيها ولم تجب بأي شيء .

وبأسلوب يعبِّر عن رضا والدتها بالاهتمام الظاهر لابنتها قالت :

ـ أخبريه ما اسمكِ .

فأجابت الفتاة وعيناها تومض مع تحذيرات والدتها :

ـ فردوس .

ـ قال أحمد بك : يا له من اسم جميل .

فنظرت فردوس بعيونها البراقة بينما تابع السيد أحمد المجاملات معبِّراً عن محبته ، وقال :

ـ قولي لي يا فردوس ، من أين لك هذا الجمال ؟

فنظرت فردوس إلى والدتها وقد بدا الارتياح عليها قليلاً . كأنها تنتظر الأمر منها .

وتدخلت الأم مرة أخرى قائلة :

ـ أخبري المعلِّم يا ابنتي .

أجابت فردوس بكل عذوبة محرِّكةً قدميها :

ـ الله .

فشد السيد أحمد ذراعيه برفق على فردوس ، وقال :

ـ أحسنت يا فردوس ! أنت فتاة ذكية جداً . قولي لي ، ما معنى « فردوس » ؟ سأهنئكِ مرة أخرى إن عرفت ذلك أيضاً .

فتدخلت والدتها مجدَّداً . وقالت بصوت يعكس مدى ثقتها بمعرفة ابنتها للإجابة ، وافتخارها بذلك :

ـ أووو ، أخبري المعلِّم بذلك أيضاً يا ابنتي .

وبعد هذه الكلمات المشجعة اندفعت فردوس قائلة :

KAYIT ODASI
TEMİZ ÇEVRE
TEMİZ DEĞİL

ـ بالطبع أعلم ، إنه اسم الجنة . المكان الذي سيذهب إليه الناس الصالحون . كما أن للجنة ثمانية أبواب ، وبدأت بتعدادها .

فتحمس السيد أحمد جداً ، واحتضن فردوس مرة أخرى وقال :

ـ أهنئك . تستحقّين جائزة . وسار بخطوات سريعة إلى غرفته . وأخذ قطعتين من الشوكولا كانت لديه في درج غرفته لإعطائها للأطفال . ثم عاد إلى فردوس ثانية . وأعطاها قطعة من الشوكولا قائلاً لها :

ـ هذه لأنك تعرفين مَنْ وهبك الجمال الذي تتمتعين به ، وهذه لأنك تعلمين معنى اسمك معطياً القطعة الأخرى .

ثم مسح بيده على شعرها مرة أخرى والتفت إلى والدتها وقال :

ـ ما شاء الله لديك ابنة ذكية جداً ، فليحفظها الله .

فانعكست الفرحة التي انتابت الأم عند الإشادة بابنتها على صوتها قائلة :

ـ شكراً لك وبارك الله فيك . ثم دخلت إلى غرفة التسجيل .

أما فردوس فقد تلاشى الخوف الذي لديها جزئياً بسبب تعامل السيد أحمد الودود . وقد بدا ذلك واضحاً من الكلمات التي قالتها فردوس لوالدتها ، وهي :

ـ نعم العم ! أعطاني شوكولا ، أليس كذلك يا أمي ؟ هل سيذهب هو أيضاً إلى الجنة ؟

ـ العلم عند الله يا ابنتي ، ما شاء الله كان .

وهكذا كانت فردوس ووالدتها عند خروجهم من حديقة المدرسة سعداءَ للغاية .

* * *

عليّ ووالده

عند الظهيرة دخل رجل ضخم من بوابة المدرسة . وبجواره طفل صغير ، محب ، ومتعاطف ، يتلفت حوله بعيون فضولية . ورافقت نظرات الرجل الحادة خطوات عنيفة . ثم توجَّه إلى ناحية الواقفين في طابور التسجيل سائلاً إياهم بأسلوب استجوابي :

ـ أين يجري التسجيل ؟

فأشار أحد أولياء الأمور إلى الباب الذي ينتظرون أمامه . في حين أجاب آخر معبِّراً بوضوح عن شعوره بالملل قائلاً :

ـ ونحن أيضاً ننتظر ، بقي القليل . أي : أراد القول له أن لا يفسد الطابور .

نظر الرجل إلى ساعته كما لو كان لديه أمر مستعجل أو يتحتم عليه الوصول إلى مكان ما . وانفتحت عيناه الكبيرتان . وقام ببعض الحركات التي أظهرت انزعاجه ، وبأسلوب يوحي بضيق الوقت لديه . وبحث عن سبل أخرى للتسجيل بأسرع وقت ممكن .

وفي أثناء ذلك لم يقاوم الطفل القادم مع والده منذ برهة جمال

الصالة ، وشرع بالركض من مكان لآخر . يصرخ ويلعب مستمتعاً ، وينزل من السلالم ويصعدها مجدداً راكضاً ، ليختبىء تحت المقاعد .

غير أن لعب الطفل لم يَدُمْ وقتاً طويلاً مثلما أراد .

صرخ والده المنتظر في الطابور صرخة تردَّد صداها في الطوابق الثلاثة للمدرسة منادياً :

ـ عليٌّ .

عندها تسمَّر عليٌّ في مكانه دون أي حركة . لا يعلم ما الذي سيفعله . فتوقف يتلفَّت حوله بعيون حائرة دون أن يخطو خطوة واحدة . ووالده يواصل الصراخ قائلاً :

ـ قف مكانك على نحو لائق ! دون إزعاج .

ومع هذا التهديد جلس عليٌّ مكانه على السلالم . يمسح بيده العرق المتدفق من جبينه . ثم أخذ عدة أنفاس عميقة . كم كان جميلاً حين ركض ، حتى إنه لم يكن هناك انزلاق على البلاط ، كأنه يتزحلق على الجليد . لتكسر زقزقة بقية الأطفال المتواجدين الصمت السائد مجدداً ، وتختلط أصواتهم ببعضها بعضاً داخل الممرات الخالية . ويتردَّد صدى أصواتهم الصاخبة بين الجدران الفارغة .

في حين حاول مساعد المدير السيد أحمد الخارج من غرفته فَهْمَ ما جرى عند سماعه صوت الرجل . ليجد وجه رجل عابس كالجدار من طرف ، ووجه طفل منهار وشاحب كالميت ، يرتجف من الخوف من الطرف الآخر .

وتردَّد السيد أحمد ذهاباً وإياباً عدة مرات بين الطرفين ، أحدهما أصيب بالضجر وآخر يملؤه الحزن .

في الواقع لم يكن الرجل يرغب بالانتظار في الطابور . كما حاول إزالة غضبه بتوبيخه ابنَه عليّاً وسط الكثير من الناس .

ومتحدثاً مع نفسه عبَّر الرجل عند رؤيته مساعد المدير السيد أحمد خارجاً من غرفته عن أفكاره التي يرغب بإسماعه إياها قائلاً :

ـ لا يقومون بواجبهم ، والجميع لديه عمل . لن أستطيع الذهاب إلى عملي إن بقيت أنتظر في هذا الطابور الطويل .

أدرك السيد أحمد غاية الرجل . فأراد أن يمنحه امتيازاً . لربما كان رجلاً غنياً إلى حد الاعتقاد بأنه على حق ، أو ربما ذو سلطة وجاه . وأراد أن يحظى بمقام مختلف عن الآخرين .

قال السيد أحمد :

ـ المعذرة أيها السيد .

وبخطوات سريعة وقوية توجَّه الرجل نحو السيد أحمد . وانتظر

شرف منحه الامتياز ، وعيناه الكبيرتان مفتوحتان على مصراعيهما .

قال السيد أحمد :

ـ ماذا حدث ؟ هل هناك من مشكلة .

وقال مشيراً إلى باب غرفة التسجيل :

ـ العملية تجري ببطء ، والداخل إلى الغرفة لا يخرج سريعاً . لا أستطيع الانتظار طويلاً ، لديَّ عمل .

ـ إذن ؟

ـ ألا يمكن إتمام تسجيلي ؟

ـ بالطبع يمكن ، وسيتم ذلك . ولكنْ هناك أناس ينتظرون في الطابور . هل سيرضون عن تخطِّيك لهم ؟

ـ وما المشكلة إن تخطَّى أحدهم ؟

ـ هل ستنتهي عملية التسجيل إنْ فكَّر الجميع مثلك ؟ ثم ما ذنب أولئك الذين ينتظرون منذ ساعة في الطابور ؟

بدأ الرجل يُشيح بنظره بعيداً حينما لم ينلِ الجواب الذي توقَّعه .

* * *

KAYIT ODASI
TEMİZ ÇEVRE

بعيون راجية

ونظر إلى ابنه بغضب . كان ما يزال جالساً على السلالم حزيناً . ولو أنه تحرك من مكانه لصبَّ جامَ غضبه عليه .

أراد عليٌّ ـ بعيون راجية ـ أن يسمح له والده باللعب . ولكن مع نظرات والده المتجهمة تلك اضطر عليٌّ أن يبعد عينيه عنه .

حاول السيد أحمد الذي اغتنم لحظة التناظر تلك إقامة تقارب مع الرجل قائلاً :

ـ ما اسمك أيها السيد ؟

ـ ألبير .

ـ سيد ألبير ، أرجوك اصبر قليلاً .

ـ ولكن لديَّ عمل .

ـ صحيح من دون شك . ولكن من الخطأ التعدي على صفوف الآخرين . وهو أمر لا تقبله أنت أيضاً .

صمت ألبير برهة ، ونظراته تبين أنه ما زال بانتظار امتياز تخطِّيه للطابور .

وتابع السيد أحمد حديثه مشيراً بعينيه إلى الطفل الجالس بخجل على السلالم قائلاً :

ـ اتركه يلعب . من الصعب جداً منعه بينما بقية الأطفال يلعبون . اسمح له .

بناءً على ذلك أشار الرجل بيده لابنه ليأتي ، فاقترب عليٌّ منه بخجل :

ـ اذهب والعب .

فرح عليٌّ لذلك ، ولم يصدِّق أن والده سمح له باللعب . ثم نظر في عينيه مرة أخرى يريد التأكد مما قاله .

وعند تلقِّيه إشارة الموافقة من عيني والده ركض نحو بقية الأطفال . من السهل جداً الفوز بقلب طفل أمام الكبار ؟

ـ سآتي في وقت آخر ، يقول ذلك بينما ينتظر أملاً أخيراً .

تابع السيد أحمد حديثه قائلاً :

ـ إن توبيخك للطفل أمام هذا العدد الكبير من الناس لم يكن أمراً صائباً ، أرجوك لا تفعل هذا مرة أخرى .

وبنظرة غريبة لم يجب الرجل على ما قيل مجدَّداً .

ـ هل ترغب أن يأتي أحدهم ويأخذ دورك في الطابور ، بينما أنت تنتظر هنا ؟

لم يجب الرجل على السؤال مرة أخرى .

ـ ما لا ترضاه لنفسك لا ترضاه لغيرك .

بدا الرجل كأنما يقول : لست بحاجة إلى النصيحة . وحينما لم يجد ما توقّعه هاج كأنه لم ينصت إلى ما قيل قبل قليل ، وقال :

ـ هيا يا عليُّ ! نحن ذاهبون .

غادر عليٌّ المدرسة عقب والده دون أن يعرف ماذا حدث .

في حين عجز السيد أحمد والمنتظرون في الطابور عن تفسير تصرف الرجل . انتابه الغضب من تصرفه هذا وسلوكه تجاه الطفل . وفكّر بمدى تأثير تلك التصرفات التي ستلحق الضرر بهوية الطفل وشخصيته على حياته مستقبلاً ، وقرر كتابة خطاب تحذيري حول هذا الموضوع .

* * *

مقالٌ صحفيٌ

نبَّه السيد أحمد أولياء الأمور بشأن المقال الذي كتبه عما مروا به في زاوية الصحيفة الصادرة مرتين أسبوعياً .

ودعا العائلات من خلال مقاله إلى بناء الأسرة على أساس التعليم الجيد للأطفال والتركيز على أهمية دور الآباء والأمهات في تشكيل شخصية أطفالهم .

(عزيزي القارىء ، يرجى قراءة هذا القسم مع عائلاتكم) .

الرجاء مزيداً من الحب

أطفالنا ، هم أزهار الجنة .

تفوح منهم رائحتها .

هم ورود ، وسنابل ، وزعفران ، وبنفسج .

جميعهم أبرياء ، ورائعون ، وأنقياء القلب .

نحن مَنْ نجعلهم ملائكةً أو وحوشاً ، بما نعطيهم من تعليم .

كل طفل هو زهرة ، إذا لم نَسْقِها ونعالجها حينما تصيبها الآفات ، فإنها تذبل أيها الأصدقاء الأعزاء !

أطفالنا هم مستقبلنا . وسنبقى معهم .

آراؤنا ، وأفكارنا ، وكل ما نملكه سينتقل إليهم .

لذا علينا أن نولي اهتماماً لما نقوله . ولا ننسى أبداً أن تصرفاتنا ستصبح مثالاً يُحتذى به .

أليس غريباً أن نتصرف بتهور وننتظر منهم فَهْمَ ذلك ؟

كم من الممكن أن يكون منطقياً برأيكم كَيْلُ الشتائم للآخرين دون خجل ، ومن ثم مطالبتهم بعدم السب والشتم ؟

وما فائدة أن نقول الكثير من الكلمات غير الأخلاقية دون كلل أو ملل ، بينما نغضب إن فعلوا هم ذلك ؟

هل بإمكان أحدهم تفسير عدم إظهار أي اهتمام بأطفالنا ، وبالمقابل يُتوقَّع منهم إبداء اهتمام بكافة الأمور ، بالله عليكم ؟

كيف يمكننا الادعاء أننا نبدي الاهتمام والمحبة التي يحتاجونها ونحن نغضب لمجرد أن قاطعونا أثناء مشاهدتنا لأحد المسلسلات ، أو الأفلام ، أو الأخبار ، أو المباراة ؟

كل واحد وشأنه في العائلة . . . هل سبق وفكَّرتم بعدد العائلات التي تبخل حتى في تقديم الرعاية التي يحتاجها أطفالها ؟ أم أنكم جزء من تلك المجموعة ؟ إذن ، هل لديكم الحق في هذا ؟

وبعد ذلك تقولون :

الشباب لا أحد يحبهم . . .

لا ينصتون إلى الكبار . . .

غير محترمين . . .

حسنٌ ، ما مقدار الرعاية والاهتمام الذي أبديته لهم وهو صغار ؟

حسنٌ ، ما مقدار المحبة التي أظهرتها لهم وهم صغار ؟

حسنٌ ، ما مقدار قربك منهم وهم صغار ؟

حسنٌ ، ما مقدار محاولتك تفهُّمهم وهم صغار ؟

أسئلة . . .

وأسئلة . . .

وأسئلة قد تتكرَّر .

أرجوكم كونوا أكثر وأكثر قرباً من أطفالكم . ولا تعيشوا بمعزل عنهم .

أحبُّوهم ولاعبوهم وتحدثوا معهم . قولوا لهم ، ودعوهم يشعرون بمقدار سعادتكم لوجودهم .

إن مقدار القرب منهم ؛ يعني : أن الأجيال القادمة مليئة بالنضج ، والتفاهم ، والحب . . .

هم كل ما نملك ، هم مستقبلنا . . .

أطفالنا ، هم أزهار الجنة .

تفوح منهم رائحتها .

هم ورود ، وسنابل ، وزعفران ، وبنفسج .

جميعهم أبرياء ، ورائعون ، وأنقياء القلب .

وإنَّ واجبنا هو الحفاظ على هذه القلوب النقية .

دعونا نحب جميع الأطفال ؛ لأنهم بالحب يكبرون .

* * *

المعلّمون

كان يوم عودتهم إلى المدرسة عقب عطلة صيفية طويلة . فقد تم إحضار جميع المعلّمين من أجل تحضيرات المدرسة . وكلهم شوق لبعضهم بعضاً . وحيوا بعضهم ، وتحدثوا عن كيفية قضائهم للإجازة .

بعضهم يتحدث عن مُضِيِّ العطلة بسرعة . كما أعربت الغالبية الكبيرة منهم عن سعادتهم لافتتاح المدارس ومدى اشتياقهم للطلاب .

وكما كان الحال دائماً حافظت الآنسة شريفة على وجهها المبتسم ، وقالت :

ـ اشتقت إليكم يا أطفالي . إنه لأمر جيد انتهاء العطلة .

نظر بعض أصدقائها إليها بعيون متعجِّبة . لم يفهموا سبب شوقها هذا للمدرسة والأطفال .

ـ والله أقول الحقيقة . لقد اشتقت لهم .

كما طرح بعض الأساتذة أيضاً وجهات نظرهم حول هذا

الموضوع مثل الآنسة شريفة . بينما واصلت هي حديثها قائلة :

ـ إنهم يملؤون حياتي بالكامل . واستمتع بالبقاء معهم . فدقَّات قلوبهم الصغيرة تُحدِث فرقاً يجعلني أشعر كأن قلبي هو الذي ينبض . وحماسهم يثير حماسي أيضاً .

طوال العطلة الصيفية وهم يتصلون بالهاتف . يتحدثون عما قاموا به وما افتقدوه . وكان هناك من يبكي أيضاً .

عندها قطعت الآنسة عائشة الحديث قائلة :

ـ يمكنني القول بأن المشاعر نفسها قد انتابتني ؛ ممّا يدل على جمال قلوبكم . فقد تعلَّقت بهم . وأصبح قلبي ينبض معهم . حتى انصهرت ذواتكم في قلوبهم .

ـ وكيف لا تشتاقين . لن أنسى اليوم الذي بدؤوا فيه الدراسةَ . كانت عيونهم الصغيرة تلمع من الحماس . حتى وصلت أصوات خفقات قلوبهم إلى مسامعي . ذلك أن أفكارهم ومشاعرهم الصافية تتشكَّل بين يديك .

وبلحظة تنساب جميع الأفكار إلى السنة السابقة . وتتذكرون الطلاب الذين رافقوكم طوال العام .

ومن ثم روت الآنسة شريفة لصديقاتها حادثة أثَّرت فيها كثيراً ، وهي :

ـ في السنة الماضية . لم أتمكن من القدوم إلى المدرسة لمدة يومين بسبب مرضي . وعندما دخلت إلى الصف تحول المكان كما لو كان عيداً . وبدا الكثير منهم متفاجئاً لا يعلم ما يفعله من شدة فرحتهم عندما رأوني . لهذا فتحوا ذراعيهم وركضوا نحوي . وقفزوا إلى حضني وعانقوني بشدة . « اشتقت إليك جداً يا معلِّمتي . أرجوكِ لا تتركينا » . يقولون ذلك ودموع البعض تتساقط من وجوههم المتلألئة .

وأثناء حديث الآنسة شريفة لاحظ البعض ابتلال عينيها ، ولإخفاء ذلك أشاحت بنظرها بعيداً .

ـ قال الأستاذ محمد : ليس التدريس مهنة سهلة . إنَّه يحتاج إلى القلب والفؤاد والتنازل والتضحية . لأننا مؤتمنون على أطهر قلوب العالم . تصلنا مثل الصفحة البيضاء . وتشكيلها أمر متروك لنا . وهو ما ينبغي أن يكون الأجمل لسعادتهم : ويكون مفيداً ، وبناء مستقبلهم . وفي الوقت نفسه يتطلب منا مزيداً من المسؤولية . إن مهنتنا فيها كل شيء .

يا له من مشهد مفعم بالمشاعر ، يصعب وصفه . حتى كان المُتَمْتِمُون سعداءَ ؛ لأنهم أصبحوا معلِّمين .

ثم غيَّر أحد الأساتذة الموضوع قائلاً :

KAYIT DEFTERİ

ـ ولكن مهنة التدريس ليست وردية إلى هذا الحد في ظل هذه الأوضاع . فظروف الحياة صعبة ، والأزمات المالية على الأبواب. . . لو أن مستوى دخلنا أفضل . عندها تعكَّرت الأجواء الموجودة فجأة .

قال الأستاذ محمد :

ـ تغيَّرت الأجواء فوراً عند الحديث عن الأمور الدنيوية ، متحدثاً عن مدى سرعة تبدُّل مزاج الإنسان .

ومن الخلف يقولون :

ـ إنهم أطفالنا . يجب علينا التفكير بهم ومعاملتهم كأنهم فلذة كبدنا . وأعتقد أن من واجبنا تنشئتهم وتربيتهم مثلما نرغب أن يكون عليه أطفالنا . وأذكر دائماً الحديث القائل : « إن حسن الخلق أفضل إرث يمكن للأب أن يتركه لطفله » .

لم يجد كلاماً آخر ليضيفه . وبجميع الأحوال كان على الأستاذ التفكير على هذا النحو . فالجميع كانوا يدركون مدى أهمية تعليم الإنسان .

ومهما بلغت سنوات عملهم في مهنة التدريس كانت حماسة العودة إلى المدرسة واللقاء مع الأطفال بادية على وجوههم بنفس المشاعر والإثارة .

ولم يتمالكوا أنفسهم من شدة التفكير بماهية هذه السعادة غير الموصوفة لدى الطلاب . لربما كانت الأجواء الساحرة والجذابة للمدرسة هي التي أثارت تلك المشاعر لديهم . إذ يكفي المرء أن يتنفس هواءَ ممرات المدرسة الشبيهة بحديقة أطفال لكي يشعر بالسعادة . ولهذا افتقدوا أجواء السعادة تلك . ولا حاجة لهم للبحث عنها في مكان آخر . أليست أصوات الأطفال المتنوِّعة ، والوجوه المبتسمة ، والعيون اللامعة كافية . . . فما حاجة المرء إلى سواها ؟

هل البحث عن السعادة ممكن في مكان آخر ؟

حينما ولدت كنت في حضن أمي ؛ ثم في المدرسة .

كبرت مع الأزهار والعصافير .

استنشقت معهم دائماً .

رائحة الجنة في الممرات . . .

إنهم أجمل نِعَمِ الدنيا .

كان التدريس واجباً عليَّ استعداداً للمستقبل .

منتظراً الدعاء فقط لقاء ذلك .

أربعون سنة كانت مهمة بما فيه الكفاية خدمة لتعليم حَرْفٍ .

ضحكت معهم .

فالمشاعر الطاهرة في قلوبهم .

هي كل شيء بالنسبة لي .

هؤلاء هم الأطفال الذين أدرِّسهم. . .

بناء على ذلك كان المعلمون ينتظرون افتتاح المدرسة ، كأنهم يرغبون باحتضان جميع الطلاب في لحظة واحدة دون أن يدركوا ذلك. . .

وبمجرد احتضانهم نسوا كل مشاكلهم وآلامهم . لأن الفرحة بتعليم شيء جديد لا توصف بالنسبة لهم. . .

* * *

البدلة

مع برودة الصباح الباكر جلس إداريو المدرسة على مقاعد الحديقة يناقشون المشاريع المتعلِّقة بالمدرسة . قال السيد إبراهيم مدير المدرسة :

ـ لا بُدَّ من تنظيم الحديقة على نحو مختلف ، حتى يتمكَّن الطلاب من التجوال واللعب فيها بارتياح أكبر ، وبغضِّ النظر عما يفعله الأطفال ؛ ينبغي تحضير كل شيء على أجمل ما يكون من أجلهم ؛ لأنهم يستحقون ذلك .

وأضاف السيد أحمد مساعد المدير قائلاً :

ـ علينا تخصيص أيامنا هذه للأطفال الذين سيكونون بعهدتنا .

وبينما كانوا يواصلون وضع الخطط المستقبلية مستمتعين بهذا الطقس الجميل ، خرج أحد أولياء الأمور من باب المدرسة المزخرف بالزجاج العاكس صارخاً :

ـ يا أخ ! كيف لن تسجله ؟ إنك تقوم بالتمييز ؟ لقد سجلت ابن جاري بينما ترفض تسجيل ابني وأنا أقيم في المكان نفسه . . .

وعلى الفور خرج السيد جلال مساعد المدير غاضباً وتوجَّه بسرعة نحو أصدقائه الجالسين على المقاعد . وقد بدا واضحاً من تصرفاته عدم رغبته في الرد على ولي الأمر .

ولم يخطُ سوى خطوات معدودة حتى ركض الرجل وشد السيد جلال من ذراعه . ففوجيء مما جرى . إذ لم يسبق أن تعرض لمثل هذا الموقف من قبل . بينما يواصل الرجل شده من ذراعه وتهديده .

كان السيد جلال ذا طباع حادة . ولهذا حاول أن يتجنب التلفظ بأي شيء سيِّيء . في حين لم يتوقف الرجل عن الصراخ وإطلاق التهديدات . ونظراته كانت تدعو شخصاً ما لمساعدته .

عندها رَدَّ عليه السيد جلال وهو في قمة نضجه قائلاً :

ـ انظر أيها الأخ ! لقد قلتها لك مراراً وتكراراً . لم نسجل أي طالب من خارج حدود منطقتنا . ومن المستحيل أن نقوم بذلك . وإن رغبنا بتسجيل طفلك لن يكون بوسعنا ذلك لإقامتك خارج نطاق التسجيل لدينا . خذه إلى أقرب مدرسة إلى منزلك وسجله هناك ؛ هذا كل ما في الأمر .

غير أن الرجل واصل الصراخ بدلاً من الاستماع لما قاله السيد جلال وقال :

ـ سوف تسجله . وإن لم تفعل سأحاسبكم على ذلك !

عندها لم يعد في وسع السيد جلال أن يتمالك نفسه وقال :

ـ توقَّف عن الصراخ في وجهي والتهديد . اذهب وافعل ما بوسعك أن تفعله .

انفعل الرجل . وتناثرت الرغوة من فمه مثل تناثرها عند ارتطام مياه البحر بالشاطىء . وتوتر الوضع إلى حد كبير . وكادوا يضربون بعضهم بعضاً . وفي أثناء ذلك جاء السيد أحمد وقال :

ـ ألا يمكن للرجال الاتفاق والتفاهم بهدوء ؟

عندها كرَّر الرجل شرح مطالبه على أمل أن ينال الدعم من السيد أحمد وقال :

ـ لقد قام جاري في المنزل المجاور تماماً بتسجيل ابنه هنا . ولكن لماذا لا تسجلون ابني أيضاً ؟

ـ انظر أيها السيد ! من غير الممكن حدوث أمر كهذا ، إنه مستحيل .

أصر الرجل على مطلبه وعاند . ومضى نحو المقعد الذي يجلس عليه مدير المدرسة .

غير أن المدير إبراهيم بهدوئه المعتاد ومستخدماً صوته المؤثر والقوي رَدَّ عليه قائلاً :

ـ عبثاً تحاول . لو أن الأمر جرى كما تقول لكنا سجلنا ابنك على

الفور . وإن لم نفعل ما الذي سيحدث ؟

عندها أرعد الرجل بكل ثقة قائلاً :

ـ سأشتري لكم جميعاً بدلات .

عمَّت الضحكات .

كما تبيَّن من فحص السجل بدقة أن الطفل الذي تحدث عنه لم يتم تسجيله .

عندها تغيَّر مزاج الرجل . ولم يعرف ماذا يقول ؟

فقد أدرك مدى وقاحة تصرُّفه ، واسود وجهه كسحاب كثيف وارتجف صوته . وحينما لم يجد مكاناً ليضع عليه الأوراق التي بحوزته توقَّف مكانه ونقلهم إلى اليد الأخرى .

وفي هذه المرة أراد السيد جلال أن يسمع هدير الرجل مجدداً فقال له :

ـ ها هي السجلات ، انظر وتأكد بنفسك .

استغرق الرجل في تفكير عميق . فقد سبق وهاجت مشاعره بشدة مثل موج البحر ، دون وجه حقٍّ . وبغضِّ النظر عما فعله ، فإنه لم يرد أبداً . وبعدما ساد صمت قصير اعتذر الرجل بأسلوب خجول وصوت يرتجف قائلاً :

ـ أنا آسف جداً .

قال السيد جلال :

ـ أخبرتك منذ البداية . نحن لم نظلم أحداً ، ولن نفعل . ولكنك أصررت على مهاجمتي .

ـ أنت محق يا أستاذ ، أكرر اعتذاري .

قال السيد أحمد مساعد المدير :

ـ عليك توخّي الحذر في مواضيع كهذه . ألا ينبغي عليك التأكد من الأمور التي لا علم لك بصحتها ؟ هل تعتقد أن قول أمور خاطئة أو الافتراء من أجل المصلحة الخاصة ، ومن ثم الشعور بالندم على الضرر الذي ستلحقه بالآخرين من دون قصد يمكن أن يخلصك ؟

ـ هذا صحيح ، لقد أخطأت .

ـ حسنٌ ، نحن نعلم أن من واجبنا مراعاة حساسية أمور كهذه . ولكي نكون منصفين ينبغي أن نكون أكثر حذراً ودقة في تفكيرنا ، وتصرفاتنا ، وكلامنا . وإلا فمن الممكن أن نلحق الأذى من دون قصد .

وعندما خرج الرجل ومساعدو المدير إلى الحديقة مجدداً حاول السيد إبراهيم مدير المدرسة فهم ما جرى بينهم من خلاف . قال السيد جلال متباهياً :

ـ لا يوجد شيء من هذا القبيل ، لقد أوضحنا ذلك للأخ .

قال المدير إبراهيم :

ـ بالفعل لا يمكن أن نفعل شيئاً كهذا . إن الظلم سيِّىء ، وإثم ، وغير إنساني .

ـ أنت محق أيها المدير ، لقد وقعنا ضحية خبر لا أساس له من الصحة .

ـ بل والأسوأ من ذلك ؛ لو كنت السبب في حدوثه !

ـ لقد أخذت العبرة ؛ وسأكون أكثر حذراً حتى لا أتعرض لأي مصيبة .

ـ ماذا بشأن البدلات ؟

ـ سآتي غداً .

وبعد الضحكات قال المدير إبراهيم :

ـ تذكر دائماً ، مثلما يُذهب الكذب بركةَ الأشياء ، كذلك الأخبار الكاذبة تقضي على العِشرة بين الناس .

خرج الرجل من باب حديقة المدرسة .

ولم يَعُدْ أبداً .

* * *

صباح الخير

في ساعات الصباح الباكر استيقظ . وقفز من سريره وركض إلى جانب والدته التي كانت في المطبخ ، وقال :

ـ صباح الخير يا أمي .

ردَّت عليه والدته بحنان :

ـ هل استيقظت يا بني ؟ صباح النور يا ابني الذكي .

لقد كان أنس متحمساً جداً ، حتى أنه أراد مشاركة حماسه مع جميع الأشياء حوله . فعاد إلى غرفته وبعد عدَّة دقائق أتى مجدداً إلى جانب أمه .

وعندما رأت حماسه مسحت على رأسه وقالت :

ـ لقد كبر ابني ، وها هو ذاهب إلى المدرسة .

ـ متى سوف أذهب ؟

ـ تناول فطورك أولاً ، وبعد قليل ستأتي حافلة المدرسة .

ـ هل ستأتين معي ؟

ـ لا ، سوف تذهب لوحدك .

ـ بالتأكيد أستطيع الذهاب لوحدي فقد أصبحت كبيراً الآن .

لقد كان أنس سعيداً جداً ؛ لأنه سيذهب إلى المدرسة للمرة الأولى على الرغم من صغر سنِّه ، فهو لم يتجاوز السبع سنوات .

دخل مرة أخرى إلى غرفته ليجهِّز ملابس المدرسة .

ورأى على الطاولة لعبته المفضلة فأمسكها بيده . وهي دراجة يركبها طفل صغير اسمه إرين ، كما كان يطلق عليه أنس .

ـ إرين ! هل تعلم أنني سوف أذهب إلى المدرسة اليوم ؟ أريد منك أن لا تشاغب حتى أعود وسنلعب سويةً ، هل فهمت ؟

ثم حمل حقيبته في يده مرة أخرى وبدأ يمسحها كأنه يريدها أن لا تتسخ . ركض بعد ذلك إلى المرآة الموجودة في الحمام ، وحاول بصعوبة أن يقف على رؤوس أصابعه من أجل أن يرى نفسه فيها . كان لديه الفضول أن يعرف كيف كان شكله كأنه كبر بين ليلة وأخرى .

في زمن والد أنس لم يكن العمر شرط أساسياً . لم ينسَ الذكرى التي رواها له والده ؛ ذكرى رحيل جده عندما كان عمره حوالي الخمس سنوات . كان والده يعتقد أن شعور الشخص بكونه كبيراً يرفع من ثقته بنفسه .

في أثناء ذلك ، استيقظت أخته الكبرى بشرى . اليوم لم يكن هنالك أية مشاجرة أو جدال مثل باقي الأيام ، كان الصمت مذهلاً . في العادة عندما يستيقظون تبدأ الشجارات بينهم ، وتتظاهر بشرى بالهدوء عندما تحذِّرها والدتها . أما اليوم فكان مختلفاً عن باقي الأيام . كان يوماً هادئاً .

نادت والدتهم من المطبخ :

ـ الطعام جاهز !

ـ نحن قادمون يا أمي !

ذهب أنس إلى المغسلة ، كما يفعل دائماً ، لغسل يديه ووجهه . ثم جلس على مائدة الطعام وقال لوالدته منتظراً مدحها :

انظري يا أمي ! لقد غسلت يديَّ . هل غسلتهم جيداً ؟

جاء الجواب من والدته من غير أي تأخير قائلة :

ـ أحسنت ! لقد قمت بغسلهم جيداً .

في هذه الأثناء ، توجَّهت الأنظار إلى بشرى . قالت بشرى عندما شعرت بتوجُّه الأنظار نحوها :

ـ أوف ! هل يجب عليَّ غسل يديَّ كل مرة ؟

بدأت الأم الكلام بشكل لطيف وقالت :

ـ ألم تسمعي يا ابنتي ما قاله أبوك ذلك اليوم ، يجب عليك أن تغسلي يديكِ قبل تناول الطعام .

سألت بشرى رغم تذكرها كلام والدها :

ـ لماذا ؟ في كل مرة يجب علينا أن نغسل أيدينا ! إلى متى سيستمر الحال هكذا ؟

ـ لكن يا ابنتي كما تعرفين هذا العمل من السُّنَّة النبوية .

سأل أنس والدته :

ـ ما هي السُّنَّة يا أمي ؟

أجابت بشرى بشكل واثق وحكيم :

ألا تعرف ؟ ألن يأخذك والدك إلى الطبيب مرتدياً ذلك الثوب ؟! هذه هي السُّنَّة .

تعجب أنس وسأل سؤاله المعتاد :

ـ أهذا صحيح يا أمي ؟

نظرت الأم إلى أعين طفليها مبتسمةً ، وقالت :

ـ لا ، هذا غير صحيح . تلك السُّنَّة مختلفة ، أما ما عنيته هو ما قاله والدكم ذاته . السُّنَّة هي الأعمال التي قام بها رسولنا الكريم .

قالت بشرى :

ـ هل كان الرسول يغسل يديه قبل كل وجبة طعام ؟

ـ نعم . كان يغسل يديه قبل الطعام وبعده .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بركة الطعام الوضوء قبله ، والوضوء بعده » .

نظرت بشرى إلى والدتها ، ثم وقفت وقالت :

ـ حسنٌ ، إنني ذاهبة أيضاً لأقوم بغسل يديَّ .

قال أنس متفاخراً بنفسه :

ـ هل سيحبنا الرسول إذا قمنا بغسل أيدينا ؟

ـ بالتأكيد سوف يحبنا الرسول كثيراً ، إذا قمنا بالأعمال التي قام بها .

ـ وهل أبي يغسل يديه من أجل هذا السبب ؟

ـ بالطبع ، يغسل يديه كما كان يفعل الرسول .

في هذا الوقت ، عادت بشرى إلى الطاولة مبتسمةً :

ـ انظروا ! لقد غسلت يديَّ بشكل جيد .

قالت والدتها :

ـ أحسنت يا ابنتي الذكية !

لقد كان كلا الطفلين سعيدَيْن . لقد أسعدهما ثناء أمهما عليهما .

بعد الانتهاء من تناول الطعام ، قام الطفلان وغسلا أيديهما . كانت الأم سعيدة بفعلهما هذا . إن غسل اليدين مع العلم بأنها سُنَّة الرسول له جمال مختلف ، جمال يضيف للقلوب نظافة مختلفة . إن القيام بسُنَّة الرسول يضيء الوجوه ، ويحافظ على نقائها .

تمنَّت الأم أن يظهر هذا الجمال على وجوه أطفالها ، ثم قامت وذهبت إليهم . وعانقتهم وقبَّلتهم بمشاعر فائضة مثل البركان .

حاول الأطفال فَهْمَ ما يجري . حدَّقت الأم بوجوه أطفالها بعيون مليئة بالحب وقالت :

ـ إن الرسول يحبكم ، يحبكم كثيراً .

ابتهج الطفلان لسعادة أحبائهم . ما أجمل الشعور بالحب ، يُسعد الإنسان ويملؤه بالطمأنينة سواء أكان كبيراً أم صغيراً . الشعور بالحب يوسِّع القلوب ويملؤها بالمحبة .

* * *

الفزّاعة الحزينة

الآن ، وقد تمت الاستعدادات على أكمل وجه ، انتظروا بعجالة موعد الذهاب إلى المدرسة . كان أنس وأخته الكبرى بشرى اللذين سيذهبان للمرة الأولى إلى بيئة مزدحمة ومختلفة ، متحمِّسين للغاية لبدء اليوم الأول من المدرسة . حيث ستأتي الحافلة ، ويصعدون إليها وينطلقون نحوها .

كان في غرفة الأطفال زينة تشبه الفزاعة مصنوعة من الخشب معلَّقة على الستائر . اشترتها لهم والدتهم من السوق لكثرة إلحاحهم عليها . وكلما رأوا فزاعةً في إحدى الحقول صاحوا : إنها « الفزاعة الحزينة » ويحدِّقون بها لعدة دقائق .

في كل صيف كانوا يذهبون إلى جدهم وجدتهم اللذَيْن يعيشان في القرية .

فتأثَّروا جداً بالحياة هناك . ذلك أن طبيعة الحياة في القرية والراحة فيها تثير رغبتهم للبقاء .

كما أن صيغ الأمر السلبية مثل « لا تركض » ، و« لا تفعل ! »

نادراً ما تستخدم في القرية . فهناك نوع من الراحة ؛ حيث ينالون الحرية ويصبحون أحراراً . . .

مثل العصافير . . .

وسعداء مثل أوراق تصدر خشخشة مع النسيم . . .

ومثيرة ومحبوبة مثل الفراشات . . .

ومطمئنة مثل طفل صغير في حضن أمه . . .

في يوم من الأيام سأل أنس عن الفزاعة في الحديقة قائلاً :

ـ ما هذه يا جدي ؟

أجاب الجد بصوت مليء بالشفقة قائلاً :

ـ إنها فزاعة .

قاطعت بشرى الحديث لتسأل :

ـ ما هي الفزاعة ؟

أجاب الجد :

ـ تُسمَّى الفزاعة ؛ لأنها تستخدم من أجل إخافة الطيور .

ـ أليس ذلك مؤسفاً ؟ لماذا تريدون إخافة الطيور ؟

ـ إذا أكل الطيور أزهار عباد الشمس هذه ماذا ستأكلون إذن ؟ لن يبقى لكم شيء .

فكَّر أنس وبشرى بالأمر قليلاً ولم يجيبوا . يبدو أنهم فهموا ما قاله جدهم .

وأضاف الجد قائلاً :

ـ هل أروي لكم قصة ؟

صاح كلاهما معاً ابتهاجاً وقالوا :

ـ نعم !

وبدأ الجد برواية قصة الفزاعة :

ـ كان ياما كان في قديم الزمان رجل اسمه الخال رأفت . كان لديه حقل شاسع من عباد الشمس . مليء بالأزهار كالشمس تخطف الأنظار . وبمرور الوقت أزعجت سنابل عباد الشمس الناضجة تحت تأثير أشعة الشمس . وبدؤوا يأكلونها ولم يكتمل نموُّها بعد . فكر الخال رأفت بالأمر ملياً ، وقرر أخيراً صنع فزاعات ووضعها في أماكن مختلفة من الحقل .

وفي وسط الحقل وضع فزاعة كبيرة جداً ، لدرجة أنها أخافت كل من يراها من بعيد لكبرها ويلتفت عائداً . كانت كالرجال الطوال الذين يمشون على عصا طويلة في السيرك . كما كانت قدماها الطويلتان جداً وذراعاها الضخمتان مصنوعتين من الخشب .

وحينما واجه الخال رأفت صعوبة في إيجاد ملابس لإلباسها

إياها . غطّى إحدى ذراعيها بمعطف ، والذراع الثانية بمعطف آخر . ومن ثم غطّى قدميها بالكثير من الملابس القديمة . ووضع على رأسها مصفاة كبيرة .

وبعيون خائفة تأملت الطيور الحقل ، ولم تتجرّأ على الاقتراب .

فاطمأنَّ الخال رأفت ، وانتظر موسم حصاد المحاصيل بارتياح . لأنها تتطلب وقتاً للنضوج .

كان الخال رأفت يأوي إلى ظل الفزاعة عند اجتيازه للحقل ، فتحميه من أشعة الشمس . وعندما يحين وقت الصلاة كان يتوضأ ويصلي تحت ظلها أيضاً .

فصاحت الفزاعة التي رأت ذلك ابتهاجاً ، ولكن لم يسمعها أحد . وتابع الخال رأفت حياته سعيداً للغاية راضياً عن نفسه .

ولما رفع يديه لله داعياً : « الحمد والشكر لك يارب » ، سمعت الفزاعة الدعاء ولم يعد قلبها يسع جسدها . فقد امتلأ قلبها مناجية الله . لأنها أدركت أنه مالك كل شيء ، وأن الله أمرها بخدمة البشر . فكل المخلوقات قد خُلقت من أجل الإنسان .

ولكن عندما حان موعد نضوج أزهار عباد الشمس ، مرض الخال رأفت ووقع طريح الفراش ، ولم يعد يأتي إلى الحقل بعد الآن . حتى بدأ ابنه رجب بالقدوم عوضاً عنه .

لم يكن رجب مثل والده . لأنه لم يُبْدِ أيَّ اهتمام بالفزاعة . حتى لم يقترب منها . ولم يستوعب لِمَ وضع والده تلك الفزاعات .

قال : « سأفعل هذا بنفسي » ، ووجَّه بندقيته نحو الطيور وأطلق النار عليها . وطهى الطيور التي اصطادها وأكلها .

وفي أثناء ذلك اشتعلت النيران في داخل الفزاعة ، ولم ترضَ عن اصطياد الطيور . وأخذت تنادي على رجب حتى لا يقتل الطيور ، ولكنه لم يسمعها على الإطلاق . استاءت كثيراً ؛ لأنها عجزت عن إسماع صوتها .

وفي يوم من الأيام ، وجَّه رجب بندقيته صوب الفزاعة المنتصبة وسط الحقل وضغط على الزناد يروِّح عن نفسه . عندها حزنت الفزاعة جداً . وبعد عدة طلقات انخلعت ذراعها الخشبية ، وفي يوم آخر كُسرت إحدى ساقيه . حتى أرهقت وضعفت ، كأنها خارجة من حرب في منتصف الحقل ، وأصبحت على حافة الانهيار .

ومنذ ذلك الحين لم تَعُدِ الفزاعة تبتسم ، ولشدة حزنها أصبحت تُعرف بالفزاعة الحزينة .

ولكنها لم تَنْسَ الخال رأفت أبداً . وتذكرت دائماً صلاته ودعاءَه . وبشوق كبير انتظرت قدومه والجلوس تحت ظلها .

وأخيراً أتى مع ابنه إلى الحقل للحصاد . فابتهجت جداً لرؤيته .

ولما رأى الخال رأفت ما حلَّ بالفزاعة استاء جداً . وغضب من ابنه رجب . وفسر له أهمية الفزاعة .

وبحزن بالغ نزع الخال رأفت الفزاعة من مكانها بعناية . وبعد مضي عام أخذها إلى المنزل من أجل إعادتها إلى مكانها . وبدأت الفزاعة الحزينة بانتظار العام التالي في منزل الخال . وبسبب حزنها لم تكن ممتنَّة على الإطلاق لما فعله رجب بها .

كشفت الابتسامة التي عَلَتْ وجه أنس الذي تذكر ذلك اليوم عن ملامحه الملائكية . لأن قلبه النقي ، وعالمه الصغير طاهر وصادق كالملائكة .

أصبحت هذه القصة مبدأ كل شيء .

فاشترى له لعبة على شكل وجه طفل تشبه الفزاعة التي رآها في السوق . كانت الألعاب مشتركة بينه وبين أخته بشرى . قام الأخوان بتعليق اللعبة بإبرة على الستائر ، كلما نظرا إليها تذكَّرا الفزاعة في الحديقة وقصة الفزاعة الحزينة التي رواها جدُّهم .

كأن الفزاعة الحزينة تقف أمامهم معلَّقة في غرفتهم . حتى أصبحت هذه الفزاعة الهزيلة والضعيفة ذات القبعة الحديثة المصنوعة من القمامة جزءاً لا يتجزأ من غرفتهم .

كان الحماس الذي أبداه أنس لذهابه للمرة الأولى إلى المدرسة

لا حدود له . لذلك عاد إلى غرفته وألقى نظره على حقيبته ، ثم ارتدى بدلته المدرسية بمساعدة والدته . والحماسة لا تفارق عينيه .

لم يكن من السهل أبداً ، أن يطير من العش ، ويصبح مع مئات الأطفال الصغار . وبعدما استعد تماماً للذهاب ، نظر للمرة الأخيرة إلى غرفته أثناء الخروج من الباب ، ورفع يده وقال :

ـ وداعاً أيتها الفزاعة الحزينة ، وداعاً يا غرفتي .

ثم رحل .

* * *

طريق المدرسة

إنه اليوم الأول . رغم أن مدة الفراق كانت قصيرة ، فقد بدا على وجهه الحزن . لم يكن من الواضح إنْ كان سيبكي أم سيفرح . أما أخته الكبرى فقد ذهبت إلى المدرسة منذ سنتين . لذلك كان الأمر أسهل بالنسبة إليها . ولكن هذه هي المرة الأولى التي يبتعد فيها أنس عن والدته ، وبيته وغرفته وعن أصدقائه في البناء . . .

زادت رغبته بالذهاب إلى المدرسة عندما كانت أخته الكبرى تتحدث عنها . كان يلعب طوال الصيف مع أخته دورَ الطالب . ولكن الآن انتهت اللعبة وبدأت المدارس . لقد أصبح طالباً حقاً .

نظَّم للمرة الأخيرة ملابسه ، حقيبته وأحذيته . كان يشكو لأمه عدَّة مرات فقالت له :

ـ حسنٌ ، إن كنت لا تريد الذهاب إلى المدرسة فلا تذهب . ابقَ هنا . لا تتعلم القراءة . ولا تصبح صديقاً مع أحد . ولا تلعب الكرة معهم أو تركض في حديقة المدرسة . . .

عندما سمع أنس ذلك الكلام قال :

ـ حسنٌ ، إنني ذاهب . وخرج من الباب .

قالت أمه وهي تضمُّه وتقبِّله :

ـ لقد أصبح ابني رجلاً كبيراً الآن ، وانطلق إلى المدرسة .

ثم لوَّح أنس بيده مودِّعاً أمه ومشى برفقة أخته نحو حافلة المدرسة التي كانت تنتظرهم .

قالت أمه :

ـ يسَّر الله أمركم .

تبسَّم أنس وتابع السير .

عندما ركب الحافلة رأى أمامه وجوهاً جديدة . والتقت عيناه بعيون جديدة . فشعر بالحرج والضجر ولم يستطع النظر إلى الشخصيات الجديدة التي قابلها . أنزل عينيه إلى الأرض وجلس بجانب أخته . إن هذه البداية الجديدة جعلت نظرته إلى العالم الخارجي معقَّدة أكثر . ماذا سيفعل الآن ؟ من سيقابل ومن سيصاحب ؟ نعم ، لقد صعب عليه فهم المشاعر الموجودة داخله . كأنه أصبح في عزلة . كان أشبه بعصفور صغير لا صاحبَ له ، لم يفهم شعور الخوف ذاك . كان هنالك مشاعر جديدة لم يشعر ، ولم يفكِّر بها من قبل .

كان مسير الحافلة في طرق معقدة مشكلة أخرى يواجهها . فماذا

سيفعل إن ضلَّ طريقه ؟ ولكنه لن يضل طريقه فأخته تلازمه دائماً . أما إن ضلت هي طريقها حينها فماذا سيفعل ؟ وبينما كان مشغولاً بتلك المشاعر أدرك دخول الحافلة إلى باحة المدرسة .

كانت باحة المدرسة تعجُّ بالطلاب . كانت تصرفاتهم وسلوكهم يعبِّر عن طبيعتهم . كان الطلاب السابقون سعداء بمقابلة أصدقائهم . يركضون ، ويمرحون ويضحكون .

وقف أنس في الزاوية ممسكاً بحقيبته كأنه لا يعرف ما عليه فعله . يحدِّق بكل ما يمر من جانبه .

كانت ساحة المدرسة مزدحمة للغاية . كان الأطفال يتمشون مع أولياء أمورهم ينتظرون رنين جرس المدرسة .

في حين كان أنس مدركاً مدى صغر حجمه . لذلك كان يبحث عن طفل يصغره حجماً . نعم ، نعم لقد عثر على ما يبحث عنه . كان هنالك في المقدمة فتاة صغيرة تقف بجانب والدتها . يرافقها إخوتها . كانت صغيرة جداً . عيونها وأنفها وأذناها صغيرتان . ارتاح أنس لمعرفته بوجود فتاة تصغره حجماً . مشى قليلاً باتجاه أخته وحدَّث نفسه متمنِّياً وجود تلك الفتاة في شعبته نفسها .

بعد قليل رن الجرس . بدأ في ساحة المدرسة تدفُّق لا يمكن إيقافه . شغل الساحة صخباً وحماساً . ثم بدأ رجل بجوار كرسي

وبيده مكبر الصوت بالكلام قائلاً :

ـ ليقف الطلاب الجدد في هذا الطرف . وليقف طلاب الشعب الثلاث في الطرف الآخر . . .

اتخذ جميع الطلاب صفوفهم عدا طلاب الصف الأول . انسحب الطلاب الجدد من أجل معرفة صفوفهم ومعلِّميهم . في حين توجَّه الطلاب المُعلنة أسماؤهم واحداً تلو الآخر نحو صفوفهم . هؤلاء الأطفال الصغار الذين وضعوا خطواتهم الأولى على سلالم المدرسة كانوا يسيرون نحو مستقبلهم : نحو المعرفة ، والفنِّ ، والقراءة ، والتفكير ، والكلام ، والإنتاج ونحو التعلُّم .

* * *

الدرس الأول

جلس الأطفال في الصفوف ينتظرون لا يعرفون ما يفعلونه . كلمة جميلة ونظرة لطيفة واهتمام قليل سيجعلهم يتعلّقون بالمدرسة ، كما أنها ستشكّل بداية جديدة من أجل مستقبلهم . سيقرؤون ويكتبون ويفكّرون وينتجون ، والأهم من هذا أنهم سوف يؤدون واجباتهم الملقاة على عاتقهم شخصياً داخل المجتمع .

كان المعلّم يقف بجانب اللوح ، يبتسم لهم ويشرح لهم ما عليهم فعله بصوت عالٍ . وأثناء تجواله بين المقاعد كان يمسح على رأس بعضهم ، بينما يشد وجنتي البعض ، ويوزع الضحكات على بعضهم الآخر . وبالمقابل كان الطلاب يشعرون بالتعاطف مع هذا المعلّم المبتسم لهم . ويستمتعون جداً بملاعبته لهم .

ثم وقف أمام الصف وقال :

ـ يا أطفال .

فنظر الجميع إليه . بينما واصل المعلّم الكلام بصوت مرتفع قائلاً :

ـ أهـلاً وسهـلاً بكـم فـي المـدرسـة . هنـا ستتعلَّمـون القـراءة والكتابة . وستدرسون بجِدٍّ . والأهم أنكم ستصبحون أناساً طيبين . لا تؤذون أحداً . ولن تقولوا كلاماً سيئاً لأحد .

ستعاملون الجميع بلطف . وتنسجمون مع أصدقائكم . وكذلك الحيوانات والطيور والنباتات ستعاملونها جيداً . ولن تُلحقوا الضرر بها . أتريدون أن يؤذيكم أحدٌ ما ؟

فارتفع صوت جلبة قوية من الصف يقول :

ـ لا !

ـ وأنتم أيضاً لن تؤذوا أحداً .

وإزاء هذه الكلمات الصادرة بحبٍّ وعطف شعر جميع الطلاب برعشة دافئة في قلوبهم . كأنهم سمعوا تلك العبارات من قبل . كان أنس أحد هؤلاء . فقد انجذب قلبه الصغير إليه كما يبدو . لأنه يعلم أهمية أن يكون إنساناً طيباً . فقد عاهد نفسه أن يكون جيداً ، ويقوم بأعمال صالحة ، وأن يقول كلاماً لائقاً ، ويظهر سلوكاً حسناً .

أخذ دروسه الأولى . ومرت بسلام دون أيِّ إساءة . وتعامل مع أصدقائه بكل حب وتقدير ، ولم يقل لهم أيَّ كلمة سوء . فقد بشر بمدى صعوبة هذا اليوم بالنسبة لأطفال لم يسبق أن انفصلوا عن أمهاتهم . إنه لأمر صعب للغاية . لهذا كان هناك دموع لطلاب

يعانون صعوبات كبيرة . حيث تقف بضع نساء في كل ركن وزاوية منتظرين بعيداً عن أعين أطفالهم . ينتظرون بحماس انتهاء اليوم . بينما يحاول الأطفال فهم المشاعر المختلفة بداخلهم الناتجة عن الانفصال عن المنزل . يتلفَّتون حولهم منتظرين رؤية أقاربهم الذين انفصلوا عنهم خلال النهار .

هناك أطفال يختبرون هكذا مشاعر للمرة الأولى نتيجة الملل الشديد الذي أصابهم ، أو أنهم يعانون آلاماً في البطن فحسب. . . فضلاً عن وجود أطفال التزموا الصمت ، ولم يفتحوا أفواههم وينطقوا بكلمة واحدة ، أو رغبوا بذلك حتَّى .

أما الأهالي الذين رافقوا الصغار الغارقين في الدموع ، ولم يتمالكوا أنفسهم عن البكاء فأخذوا ينتظرون الاستراحة في باحة المدرسة. . .

« أمي لا تتركيني » هكذا كان يتوسل الكثير من الأطفال أمهاتهم . لم تستوعب عقولهم الصغيرة سبب وجود هذا الكم الهائل من الناس في الحديقة .

وآخرون ينتظرون موعد الطعام ممن لم يتناول وجبة الفطور صباحاً من شدة الحماس ، أو بالكاد تناول بضع لقيمات تحت إلحاح أمهاتهم .

في حين انتظر على الزاوية الأخرى طفل يبدو من عينيه الحنين منجذباً إلى رائحة منزله الكائن على بُعْدِ خطوتين .

وفي كل استراحة كانت الأمهات ينتظرن حتى المساء عند مدخل المدرسة من أجل رفع معنويات أطفالهم .

وخلال عملية التأقلم هذه التي هيمن فيها الخوف والقلق والارتباك على عيون الأطفال الصغار كان هناك فتاة أخرى لم تجرؤ على تجاوز الصف أبداً. . .

وبما أن اليوم الأول مخيف لدى بعض الأطفال ، لهذا يستغرق أياماً عدَّة ليعتادوا على المدرسة . وبعد ذلك سيحبها بعضهم كثيراً في حين سيتحمَّس البعض الآخر لها .

حتى أن أحدهم قد أتى جميعُ أفراد عائلته ، الأم والأب والخالة والعمة ، جميعُهم أتوا. . .

* * *

الاستراحة

مع رنين الجرس حدثت ضوضاء داخل ممرات المدرسة . وتلاحم الأطفال كالنحل . يحلِّق بعضهم كطائرة فاتحاً ذراعيه . بينما يركض البعض الآخر هنا وهناك كالفراشة .

وفي الصفوف الكبيرة اجتمع الأصدقاء الذين لم يلتقوا خلال عطلة الصيف والشوق يملؤهم .

لم يمض وقت طويل على إدراكهم أن الاستراحة تعني الحرية . بينما نظر الوافدون الجدد بعيون خجولة وخائفة قليلاً إلى الأماكن التي يتجوَّلون بها . وفي إحدى الصفوف خرج الطلاب بشكل جماعي . والمعلمة أمامهم تشرح ما يجب عليهم القيام له أثناء الاستراحة قائلة :

ـ انتبهوا . لا تركضوا في الممرات ولا تصطدموا مع بعضكم بعضاً . ولا تتصرفوا بطريقة من شأنها أن تزعج أحداً . استريحوا خلال هذه المدة ، ولا تنسوا تأمين كافة احتياجاتكم أيضاً .

اختلفت أجواء الاستراحة في كل صف وتنوَّعت عند كل طالب .

بينما يركض البعض بشكل جنوني ، كان البعض الآخر يلعب لعبة المطاردة .

وآخران يقفان على الزاوية فقط ، دون أن يتكلما حتّى ، لربما لم يتمكنوا من اللعب. . . في حين يغلب على بعضهم النعاس ، ممن لا يعرفون أن عليهم النوم في وقت مبكر من المساء. . .

إضافة إلى أولئك الجالسين يتحدثون داخل الصفوف. . .

كانت الاستراحة أشبه بحديقة أزهار . يتجول الأطفال على اختلاف أشكالهم في كافة أنحاء المدرسة . الأشقر والأسمر والأصهب ، والعيون الملونة ، ومشيات مختلفة .

في حين يراقب المعلِّمون الأطفال حتى لا يصيبهم أيُّ مكروه. . . يبحثون في كافة أرجاء المدرسة. . .

حيث يقفز الأطفال المحتشدون في أماكن مختلفة من حديقة المدرسة بالحبل ، ويلعبون الحجلةَ ، ويواصلون الركض والتسابق .

بينما كان بعض الوافدين الجدد ينظرون بإعجاب إلى أصدقائهم من الصفوف العليا . وبعد مدة سيعتادون عليهم وسيلعبون ويركضون مثلهم . يلزمهم بعض الوقت فقط .

* * *

الأسبوع الأول

استمر الاضطراب نفسه طوال الأسبوع . كان حسن من ضمن الوافدين الجدد ، الذي لفت الأنظار إليه بسبب قصة شعره القصيرة . تمسك بإحكام بصندوق الغذاء الخاص به خائفاً عليه من الضياع . وبالطبع كان لذلك علاقة بأخته الكبرى فقد قالت لحسن منبِّهة إياه :

ـ انتبه إلى صندوق الغذاء خاصتك ، فإن ضاع ستبقى جائعاً دون طعام .

كان حسن يمسك صندوق غدائه بإحكام معتقداً أنها سوف تختفي . ممّا لفت انتباه المعلِّمة .

فاقتربت من حسن وقالت له وهي تمسح على شعره :

ـ كم أنت طفل جميل يا حسن !

لمعت عينا حسن . وأحسَّ بالحب . لقد نجح أخيراً بلفت انتباه المعلِّمة فقالت له :

ـ لماذا تحمل هذا الصندوق في يديك رغم أن فترة الاستراحة لم تأتِ بعد ؟

أجاب حسن دون تردد :

ـ لكي لا يضيع يا معلِّمتي .

ابتسمت المعلمة وشدت وجنتيه قائلة :

ـ لن يضيع يا حسن . لا شيء يضيع هنا .

شعر حسن بالطمأنينة لكلام المعلِّمة . ووضع الصندوق تحت مقعده مثلما فعل أصدقاؤه .

وعلت الابتسامات وجه المعلِّمة وحسن فقالت :

ـ الآن أصبح الوضع أفضل . إن مكان الصندوق هناك .

قامت المعلِّمة برسم بعض الرسمات على اللوح من أجل لفت انتباه جميع الطلاب . فكان رد فعل كل طفل تجاه هذه الرسمات مختلفاً . سألت المعلِّمة الصف عن ماهية الرسمات . فرفعت عائشة يدها فسمحت لها المعلِّمة بالكلام وقالت :

ـ يا معلِّمتي ، إن هؤلاء الأطفال يأكلون ، علي أحضر الحليب وحسين يأكل البسكويت .

قالت المعلِّمة لعائشة :

ـ أحسنتِ ، إنهم يأكلون الطعام ، هذا صحيح ، ولكن من غير أن يتناثر فتات الطعام لذلك يجب علينا الانتباه عند تناول الطعام بالصف .

لأن تناثر الفتات يوسِّخ الصف .

وسوف تجبرون على الجلوس في مكان متَّسخ . هل تريدون الجلوس في مكان كهذا ؟

أجاب الطلاب بصوتٍ واحد :

ـ كلا .

ـ لذلك يجب عليكم في فترة الاستراحة أن تأكلوا الطعام الذي أحضرتموه من دون استعجال .

أجاب الطلاب بالموافقة ورنَّ الجرس معلناً بدء فترة الاستراحة .

* * *

المقلمة

كانت عائشة تلفت الأنظار بعيونها الزرقاء . كانت ترتدي أقراطاً طويلة . وتحمل بيديها مقلمة مليئة بالأقلام المختلفة . كانت المقلمة رائعة للغاية . لم يستطع بعض الأطفال أن يشيحوا بأنظارهم عنها . كانت عليها رسمات كثيرة وألوان . أبقت عائشة المقلمة معها حتى في فترة الاستراحة . فخوَّفها من فقدانها ، كان يجبرها على فعل ذلك . وعندما لاحظ المعلِّم ما يحدث اتجه نحوها فوراً وحمل المقلمة بيده وقال :

ـ لديك مقلمة جميلة جداً يا عائشة .

صرخ الأطفال كأنهم في جوقة :

ـ نعم !

قال المعلم :

ـ فليحمل الجميع مقالمه .

رفع جميع طلاب مقالمهم . قال المعلم :

ـ لقد تحوَّل الصف إلى حديقة أزهار .

إن مقالمكم جميعها جميلة جداً . جميعها جديدة ومزينة .

وتابع حديثه قائلاً :

ـ من الخطأ أخذ ممتلكات شخص ما من دون استئذان . لا تـأخـذوا أشيـاء الآخـريـن دون إذن . وهكـذا لـن يـأخـذ أحـد أشياءَكم. . . . لا داعيَ لبقاء مقالمكم بجانبكم دائماً . لن يمسك أحد أشياءً غير أشيائه .

فَهِمَ جميع الطلاب ما أراد المعلم قوله . وبعد ذلك تخلَّت عائشة عن حمل مقلمتها معها .

* * *

صف آخر

لم تكن مسألة تكوين صداقات سهلة أبداً . كان متين ذا بشرة سمراء يعاني من صعوبة في إيجاد أصدقاء . كما كان يستحيي من الاقتراب منهم . ويخاف حتى من الحديث معهم . كانت المعلِّمة تجلس بجانبه مرات عدَّة وتطلب منه تكوين صداقات . محاولة الحديث معه كصديق . وأخيراً نجحت في خلق تواصل معه . فأخذ متين يتحدث عن صديقه في المنزل للمعلِّمة قائلاً :

ـ كنت أتحدث معه . وأثق به كثيراً . لا ينظر إليَّ نظرة سوء . ولا يوبِّخني على الإطلاق . ويستمع بهدوء إلى ما أقوله .

فهمت المعلِّمة الوضع . وحينما تركز اهتمامها بمتين إلى حد جذب انتباه بقية الأطفال تابعت الحديث بالأمثلة عن ضرورة تكوينه للصداقات .

استدعت والدته . دخلت الأم بخجل . تظن أن سلوكه المخالف لم يمر دون إثارة انتباه المعلِّمة . والأفكار تراودها حول الخطأ الذي ارتكبه ابنها ، وأن المعلِّمة ستشتكي منه .

قالت المعلِّمة :

ـ أهلاً وسهلاً سيدة فوسون . أود التحدث معك بشأن ابنك .

كانت السيدة فوسون واثقة من أنها ستسمع أموراً سيئة عن ابنها ؛ لأن الانتقادات كانت توجَّه إليه على الدوام . ولكن حينما سمعت السيدة فوسون كلام المعلِّمة فهمت مشكلة ابنها متين .

فتحدثت لها عن زوجها . وأنه توفِّي قبل زمن طويل في حادث سير بينما لم يخطُ متين خطواته الأولى بعد .

ومنذ ذلك الحين ، عاشت الأم والابن لوحدهما . يبدو أن الأيام التي أمضوها وحيدين جعلتهما ينغلقان على نفسيهما .

لذلك لم يصبح لمتين أيُّ صديق على الإطلاق . ولم يكن في حياته سوى أمه وألعابه . ولكل لعبة كان يوجد اسم مختلف . كان صديقه فرحات هو اللعبة التي تكلم عنها ويرتاح إليها .

خطرت على بال المعلِّمة فكرة . وهي أن تجد له صديقاً ، وأن يكون اسمه فرحات . كان ذلك ضرورياً للقضاء على وحدته . وبالتالي يفسح المجال ليكون مع صديق ما .

وأخبرت والدته بما عليها القيام به .

قالت لها :

ـ لا تقلقي ، سيتجاوز الطفل هذه المشكلة . وبجميع الأحوال

ABC

لقد أصبحنا أصدقاء ، ثم ألم نجد له صديقاً في الصف ، فالأمور على ما يرام . . .

شكرت الأم المعلِّمة بنظرات مليئة بالامتنان .

بعدها نادت المعلِّمة على طفل يُدعى فرحات في الصف أولاً . كان فرحات نشطاً قليلاً ، ويجذب الانتباه بكثرة حركته أحياناً .

ولكن كان من الواضح أنه طفل ودود . كان نموذجاً رائعاً لمشاركة طعامه مع أصدقائه . ولهذا كانت السعادة باديةً بالفعل على فرحات أثناء حديثه مع المعلِّمة ، والابتسامة والبريق في عينيه لا يفارقه .

قالت المعلِّمة :

ـ هل تعرف متيناً ؟

ـ نعم أعرفه هو طفل هادىء جداً . أردت الحديث معه مرات عدَّة ، لكنه لم يقترب .

ـ حسنٌ أريد أن تكون صديقاً معه . إن أصبحتما صديقين ، يمكن أن يتخلَّص من صمته . ألا تريد ذلك ؟

ـ نعم أريد .

ـ كما سأكون صديقة معك أيضاً ، بالتالي سنصبح ثلاثتنا أصدقاء .

كان فرحات يطير من الفرحة . فالمعلِّمة طلبت منه مساعدة . أهناك أمر أجمل من ذلك ؟

تابع فرحات الاهتمام بمتين الجالس مكانه دون حراك حتى بدأ التنزُّه معه بعد مدَّة قصيرة . وبدلاً من تلك النظرات الميتة حلت محلها عيون تشرق باللمعان ، والحيوية .

كانت المعلِّمة ممتنَّة للغاية من هذا التغيُّر الحاصل لمتين . كما تبيَّن مدى ذكائه وانسجامه ، خصوصاً في الألعاب التي كان المستهدف فيها أطفالاً آخرين .

في يوم من الأيام أتت والدته فجأة إلى المدرسة . وفي يدها طبق من الفطائر . التقت بالمعلِّمة أولاً وقالت لها :

ـ أشكرك جزيل الشكر . لقد أصبح متين طفلاً مفعماً بالحياة . يتكلم ، ويتحدث عن المدرسة وأصدقائه . ويذكرك دائماً .

وعندما حان وقت الطعام قامت المعلِّمة بتوزيع الفطائر التي حضرتها والدة متين على الطلاب وقالت :

ـ لقد جلبت لكم والدة صديقكم متين الفطائر .

وعلى وقع التصفيق في الصف ، شكر الجميع والدةَ متين . ونالت رضا الأطفال واستحسانهم .

* * *

لا معلمَ في الصف

لم يأتِ المعلِّم ذلك اليوم . كان الصف مزدحماً كالرمل . ثم دخل السيد أحمد مساعد المدير إلى الصف ، فوقف الطلاب جميعاً .

قال السيد أحمد :

ـ اجلسوا أيها الأطفال .

لم يكن لدى الأطفال أدنى فكرة عما حدث لمعلِّمهم . انتظر الجميع شرحاً ما . كانوا يعلمون أن السيد أحمد شخص محب وحنون . وعلى الرغم من أنه ذو وجه بشوش كان الأطفال يرتعشون خوفاً عند قدومه ، لكونه مساعد المدير . وبجدية وقف الطلاب وصمتوا كأن معلِّمهم موجود في الصف حقاً . أو من المحتمل أنهم أصبحوا هادئين أكثر .

قال :

ـ أيها الأطفال ، إن معلِّمكم لن يأتي اليوم .

نظر الجميع إلى بعضهم بعضاً . كان من الواضح أنهم ينتظرون

تفسيراً ما . تابع مساعد المدير كلامه :

ـ لقد مرض ليلة أمس . لم تصلنا أية معلومات أخرى عنه حتى الآن . إنني أفكِّر في زيارته بعد قليل . سوف أعيِّن لكم معلِّماً آخر . لا تُصدروا أي ضجة .

أشار بيده نحو رئيسة الصف حليمة وقال :

ـ تعالَيْ إلى هنا يا ابنتي .

كانت حليمة فتاة ذات وجه بشوش ، نشيطةً ولديها شعر أشقر طويل . أرجعت شعرها إلى الخلف ، وحاولت إسكات الطلاب في الصف بهدوء كأنها لا تريد أن تزعج حتى النملة الصغيرة .

قال السيد أحمد :

ـ اجلسي ، وأشار إلى طاولة المعلم .

مما يعني أنها ستصرخ وتنادي ، ولكن لن يسمعها أحد . وبالفعل جلست على الطاولة . وبمجرد خروج السيد أحمد من الصف بدأ الضجيج . لم تعرف حليمة ما عليها فعله . لم يكن الصخب يوماً بهذه الشدة في الصف .

كان هناك مَنْ قام بتفريغ قلمه الحبر ووضع بداخله كرات ورق صغيرة مستخدماً إياها كسلاح . كانت كرات الورق مضغوطة جداً ، كأنها خرز ينفخها على رأس أصدقائه وعيونهم وظهورهم .

وقد بالغ بعض الطلاب بهذا العمل ، فكانوا يرمون كرات ورق كبيرة على بعضهم بعضاً . كان شادي واحداً من أولئك الذين يصيبون أهدافهم بدقة . وكان الطلاب المستهدفين بالكرات يقفزون من أماكنهم ويصرخون .

خرجت الأمور عن السيطرة . وأصبح حال الصف كالحرب بين مَنْ يرمي الأوراق وبين المستهدفين . وعندما رأوا معلِّمة صف آخر قادمة من أجل تحذيرهم صمتوا كأن شيئاً لم يحدث . وانتظروا بصمتٍ ذَهاب المعلِّمة ذات النظرات الحادة .

كانت المعلِّمة قصيرة القامة وشعرها قصير . قالت :

ـ إنني أحذركم وخرجت من الباب .

توقَّف الضجيج الموجود في الصف لفترة قصيرة . وخشي بعض الطلاب من تهديدات المعلِّمة . فقد سمعوا أنها قاسية جداً ، وفي بعض الأحيان تقوم بقرص الطلاب الغاضبة منهم من آذانهم . فصمتوا خوفاً من أن تفعل ذلك .

وعلى حين غفلة ، كُسر الصمت السائد في الفصل الدراسي . كان شادي أول من بدأ الضجيج من جديد . حيث أصاب أذن حمدي بكُرات الورق التي ينفخها عن طريق قلمه الفارغ . فقام حمدي أيضاً بإلقاء كرة ورقية كبيرة مصيباً رأس أحمد فبدأ الاشتباك من جديد .

وكانت رئيسة الصف ، حليمة ، تحدِّق فيهم بلا حول ولا قوة .

تحاول إسكاتهم بين الحين والآخر ، ولكنَّ أحداً منهم لم يسمع صوتها .

في الواقع ، لم تكن هذه المجموعة مشاغبة إلى هذا الحد . ولكنْ هناك أمر ما مختلف اليوم . فقد أحبُّوا معلِّمهم جداً . ولكنه لم يسمح يوماً بمثل هذا الضجيج . وفي أغلب الأحيان كان ذلك سبب لغضبه . فهو لا يحب الضوضاء بتاتاً . يقول : « اصمتوا ، لا أستطيع التحمل » ، وينظر إليهم نظرةً حادة . كان الصمت أهم مظهر من مظاهر الصف خلال الحصص الدراسية . أما الآن فلا يوجد معلِّم كأنهم ينتقمون منه عن طريق الضجيج .

توقفت الضوضاء فجأة . كان الطلاب ينظرون إلى الباب . وهم على وشك الاختباء تحت المقاعد . فجأة صمت جميع الطلاب منتظرين ما سيحدث . كان على الباب مدير المدرسة ، السيد إبراهيم . دخل إلى هنا بسبب الضوضاء التي وصلت إلى رواق المدرسة وانتشرت في الصفوف . لم يستطع أن ينتظر في مكتبه فذهب إلى الصف لمعرفة ما يحصل . كان يحدِّق بهم بشكلٍ لا يوصف . كأنه ثور هائج . لم يره أحد بهذا الشكل من قبل ، كان الغضب يخرج من عينيه . ورغم شخصيته الحادة كان رجلاً هادئاً

ومتفهّماً بالعادة . كما كانت تصرفاته طيبة رغم عناده وضخامة جسده . لم يستطع هو أيضاً تحمُّل تلك الضوضاء فخرج من مكتبه وجاء إلى الصف .

ساد الصمت لفترة طويلة . ونظر إلى جميع الطلاب . لم يكن هناك صوت واحد في الصف . كان جميعُهم مسالمين كقطة سكبت الحليب . كأن هذا الصف مختلف عن الصف الماضي . وتحولوا إلى صف مختلف تماماً .

بدأ الكلام بغضب :

ـ لستم وحدكم في هذه المدرسة . الصفوف الأخرى مستمرة في حصصها الدراسية . إذا استمرت هذه الضوضاء سوف يصعب على بقية المعلمين الاستمرار في التدريس . وهذا سيكون غير عادل . إنكم تظلمون بقية الطلاب ؛ لأنكم تمنعونهم من سماع الدرس براحة . إنكم مسؤولون عن هذا الخطأ . وهذه ستكون مسؤولية كبيرة . إن استمرار الدروس في الصف نفسه ، أو في باقي الصفوف من غير أي إزعاج هو حقٌّ للجميع . ومسؤولية هذا الأمر كبيرة . وإن الله لا يغفر حقوق العباد .

انهال هذا الكلام على الصف كجبل جليد ، وتجمَّد الجميع . استمع الطلاب إلى مدير المدرسة حابسين أنفاسهم .

ـ إضافة إلى أنَّ فعلكم هذا سوف يزعج معلِّمكم الغائب . وإن عرف ما يجري سيأتي إلى هنا وهو مريض . إنني متأكد أنه لن يتحمل إزعاجكم للصفوف الأخرى . علاوةً على ذلك ، إن تصرفاتكم تلك ستكون السبب في انتشار سمعة غير جيدة عن معلِّمكم . وسيحزن إن سمعهم يقولون : ما هذا الصف ألم يُربِّهم معلِّمهم جيداً .

وعند إدراك الطلاب لفعلتهم هذه كان الأمر قد انتهى . إذ لم يفكِّروا قط بأن المعلمين استاؤوا منهم حقاً وأنهم لم يحترموا حقوق الآخرين . . .

لم يدركوا أن فعلتهم هذه سوف تصل إلى هذا الحد من الفوضى . ولم يمض وقت طويل حتى أدرك الطلاب من كلام المدير أن تصرفاتهم كانت خاطئةً . وطأطأ الأطفال رؤوسهم خجلاً من أفعالهم .

كانت الجملة الأخيرة التي قالها المدير بمثابة تنبيه رنَّ في آذان الجميع ومفادها :

ـ ليس من الضرورة أن يعرف معلِّمكم بما جرى اليوم . . . .

عندها شعر الطلاب بالحرج . ولم يُصدر أيَّ صوت منهم . حتى إيرجان المشاغب ذو الوجه والأنف الصغيرين لم يُصدر أيَّ صوت .

وبينما كان الصمت مستمراً توجَّه المدير نحو الباب ، ثم عاد إلى الصف كأنه قد نسي أمراً ما ، وقال :

ـ إنني سأذهب إلى زيارة معلِّمكم الآن . إنه في المستشفى . . .

بدأ بعض الطلاب في الصف بالبكاء ؛ لأن وجود المعلم في المستشفى هو دليل على كون المرض خطير . أو هذا ما اعتقده الأطفال .

خرج المدير من الصف والصمت كان يعمُّ أرجاء المكان . كان إدراكهم خطأ فعلتهم نقطة تحول بالنسبة لهم . ممّا يعني أن حالتهم السابقة لن تتكرَّر مرة آخرى .

بعد دقائق قليلة ، دخل المعلم المناوب إلى الصف والصمت يخيِّم عليه . ولم يصدر أي صوت من الطلاب . حتى صوت أنفاسهم لم يُسمع . وفوجىء المعلم المناوب . إذ لم يعتدْ على مثل هذا الصمت . أثار هذا الوضع فضوله فقال عندما رنَّ الجرس :

ـ إنني أهنِّئكم أيها الأطفال . ما أجمل هذا الصف .

لم يكن الأطفال سعداء بهذا الثناء . كان تفكيرهم مشغولاً بمعلِّمهم الموجود في المستشفى فتساءَلوا عن سبب مرضه .

كان المعلِّم يعاملهم كأنهم أطفاله . إنْ مرضَ أحد منهم ذهب فوراً إلى زيارته ، ولذلك نجح في دخول قلوبهم . وإن لم يذهب

لزيارتهم يقوم بالاتصال بهم . كان يلفت الانتباه إليه بسبب ربطات عنقه الملوَّنة ولباسه الجميل وقامته الطويلة . إنَّ نجاح الأطفال يسعده وإن واجهوا ظروفاً سيئة فكان يحزن معهم .

وفي اليوم التالي ، اجتمع أولياء أمور الطلاب في المدرسة عند سماع خبر مرض المعلِّم . أثارت حالته فضولهم . أراد الطلاب رؤية معلِّمهم . ومنهم من كان يبكي . يخافون من حدوث مكروهٍ ما ، ويدعون له بالشفاء بأقرب وقت ممكن .

في ذلك اليوم أعطى المعلِّم المناوب الدرس مرة أخرى . وعند انتهاء الدرس ، ذهب الطلاب وأولياء أمورهم جميعاً إلى المستشفى .

وكان الأطفال يرجفون من شدة فرحهم . لأن رؤية معلِّمهم ستجلب لهم السعادة بكل تأكيد . كان بعض الطلاب يحملون كتباً هدية يقدِّمونها له . فكانوا يدركون أن معلِّمهم يقرأ الكتب دوماً . ووجدوا أنه من المناسب أن يقدِّموا له كتاباً حتى لا يشعر بالملل في المستشفى . من الضروري أن يكون هنالك كتاب على طاولته أو في حقيبته .

وفُوجيء الجميع بما أمرهم به العامل في المستشفى قائلاً :

ـ ممنوع دخول الأطفال . الرجاء لا تجبرونا على فعل ذلك .

بدأت أصوات البكاء بالارتفاع عندما علموا بهذا التحذير .

عندها شعر العامل في المستشفى بتأنيب الضمير من بكائهم . فقال لهم وهو ذاهب لمقابلة أحد المسؤولين :

ـ أيها الأطفال إنني ذاهب إلى هذه المقابلة من أجلكم . انتظروا هنا .

كما طلبت امرأة من ضمن الأهالي تُدعى المحامية هاندان الذهاب معه لمقابلة المسؤولين .

وبينما كانت السيدة هاندان ذاهبة إلى مقابلة المسؤولين مع العامل كان الأطفال يدعون أن يسمح لهم بالدخول .

وبعد قليل عادت السيدة هاندان بوجه مبتسم . كما أعطى العامل الطلاب أخباراً طيبة ، ولكنه استمر في التحذير :

ـ الرجاء ابقوا صامتين ، لا نريد أي إزعاج . إنكم تعرفون جيداً ما يجب عليكم فعله في المستشفى .

قال ذلك وهو يظهر صورة ممرضة تقوم بعلامة الصمت .

انتبه الأطفال إلى ذلك التحذير . ومشوا في صمت . وعند وصولهم إلى باب الغرفة التي يستلقي فيها معلِّمهم كادت قلوبهم تتوقَّف من شدة الحماس .

عندما رأى المعلم أولئك الأطفال الصغار أمامه حاول الذهاب

نحوهم . لأن الأطفال الذين يحبهم يقفون أمامه الآن . وأدرك مدى اشتياقه لهم بعد ابتعاده عنهم ليومين متتاليين ، وأنه لن يستطيع الاستمرار من غير وجودهم في حياته .

قبَّل الأطفال يديه واحداً تلو الآخر . لذلك شعر بالتحسن عند كل قُبلة . فكان تحسنه مفاجئاً . واعتقد أن باستطاعته العودة إليهم فوراً . كما شكر طلابه على الكتب التي أحضروها له ، وقال :

ـ إن الكتاب هو أجمل الهدايا . إنكم أذكياء .

وعلى الفور أجاب شادي قائلاً :

ـ بالطبع فنحن طلابك .

بدت الابتسامات واضحة على وجه الجميع . إن قول شادي ذلك مهم جداً . ثم قام المعلِّم بشرح حالته قائلاً :

ـ أطفالي الأعزاء .

أرادَ الجميع معرفة الخبر الجيد الذي سيقوله المعلِّم .

ـ أكَّد الأطباء على ضرورة بقائي هنا لعدَّة أيام .

لم يعجب بعض الطلاب قرار الطبيب . فقد أرادوا قدومه إلى المدرسة فوراً . وتابع كلامه قائلاً :

ـ إنْ أتيت إلى المدرسة دون تحسن سيؤدِّي ذلك إلى تدهور حالتي الصحية . ولكن سأكون بجانبكم في أقرب وقت ممكن . لقد

ساهم قدومكم إلى هنا في شفائي . فقد تحسن مزاجي عند إظهار حبّكم لي . إنني أشكركم جداً .

قبَّل الأطفال يديه من جديد ، ودعوا له قائلين :

ـ شفاك الله وعافاك .

وفي تلك الأثناء قالت المحامية السيدة هاندان :

ـ لقد انتهت المدَّة المسموحة لزيارة المريض .

وبينما كان الأطفال يغادرون ، شعر المعلِّم بالحماس مرة أخرى . لقد فرح بقدوم الطلاب لزيارته . وأدركَ أن الإنسان يحتاج إلى رعاية واهتمام الآخرين في أوقات المرض .

* * *

الدراسة

اعتاد الوافدون الجدد إلى المدرسة على البيئة المدرسية ، وبدؤوا بتطبيق ما يفعله الطلاب القدامى على حياتهم الخاصة . حيث انضم البعض منهم إلى مجموعة المشاغبين ، في حين خصص البعض الآخر وقتاً أكثر للدراسة ، وبدأ بتعلم كيفية تكوين صداقات مع زملائه خلال فترة الاستراحة .

كان عدم أداء بعض الطلاب في الصف لواجباتهم المنزلية التي طلبها المعلم من أكثر الأمور التي اشتكوا منها . وقد كان الأساتذة يشدون أنوفهم أحياناً ، حتى كاد المعلم يندب حظَّه على المصيبة التي حلَّت عليه بسببهم ، ثم يتراجع على ذلك . ويتذكر فجأة فترة طفولته ، حينما كان يوبِّخه والده ومعلِّمه .

وكثيراً ما كان ينبه المعلِّم ويحذره بسبب إصراره على عدم القيام بواجباته المنزلية . كما كان والده يحدثه مراراً وتكراراً عن الدراسة . ولم يتفاجأ على الإطلاق حينما عرف أن سبب عدم اهتمامه بالدروس هم أصدقاؤه .

كان والده طبيباً ناجحاً . مطلوب من قبل الجميع . ونجاحه يُحكى على ألسنتهم . وعلى الرغم من ذلك كان يتصرف بتواضع كبير . فقد كان عمله المنظَّم وطبيعته المتواضعة أساس نجاحه . وهو ما يلتمس من خلال حديثه بالقول :

ـ انظر يا بني ، يجب عليك أن تدرس . قد يكون ذلك صعباً ، ولكن ستنال غايتك في المستقبل من خلال التغلُّب على تلك الصعوبات ؛ لأنه من غير الممكن تحقيق النجاح من دون عقبات . ويمكنك النجاح بذلك .

ثم نادى المعلِّم على نهاد قائد المجموعة المشاغبة ، وسأله :

ـ لماذا لم تقم بالواجبات التي طلبتها ، تأتي إلى المدرسة من دون دراسة .

لم يتمكن نهاد من الإجابة . إذ لم يكن لديه كلام يقوله . كان من الصعب عليه الدراسة ؛ لأن اللعب والشغب أسهل وأكثر متعة بالنسبة إليه .

عندها مسح المعلِّم على رأسه ونظر في عينيه بإمعان . كأنه سينوِّمه تنويماً مغناطيسياً . ثم قال له ما سبق وقاله له أبوه قبل سنوات :

ـ إن الدراسة هي وصفتك الطبية للتخلُّص من هذا المرض .

وهي الحل الوحيد للخلاص من هذا الوضع ، والأفضل من جميع الأدوية ، ونتائجها موثوقة أكثر ومؤكَّدة . وأقولها مجدداً : إن الدراسة . . . و

كان الصف كله ينصت بدقة وعناية للمعلِّم ، على اعتبار أن كلامه سينفذ في حال تطبيقه على حياتهم الخاصة .

ثم تنهَّد متحسراً على تلك السنوات قائلاً :

ـ لقد كان والدي محقاً ! ليس من السهل أبداً التعود على الدراسة . ولكنه أمر ضروري . لأن العادات تتم عن طريق تكرار القيام بالشيء . وسينجح الإنسان عاجلاً أم آجلاً . وتحل محله العادة ؛ لأنه بمجرد أن يعتاد الإنسان على أمر ما عندها لن يستطيع التخلِّي عنه .

وأنتم أيضاً يمكنكم القيام بذلك . وتحويل الدراسة إلى عادة . وهو ما سأعلمكم إياه . وبذلك أكون قد قدمت شيئاً ستستفيدون منه مدى الحياة . انتبهوا إلى ما سأقوله .

عندها نظر الطلاب بعيون أكثر فضولاً ليتعلَّموا وبدأ المعلم بالشرح قائلاً :

ذات مرة كان هناك رجل مشهور بحسن الطالع يعرف بالصياد معيناً . ورغم أن معين كان قليلاً ما يصطاد على الشواطىء ، ولكن

كلما خرج للصيد كان لا يعود خاليَ الوفاض ، يأتي وسلاله مليئة بالسمك .

وفي الوقت الذي كان فيه يكسب الأموال شاع أمر حسن طالعه بين الناس . لدرجة أصبح من العرف أن يقال : « محظوظ مثل الصياد معين » من أجل وصف شخص كثير الحظ .

وفي يوم من الأيام توفِّي الصياد معين . وقد ذهل أولئك الذين أتوا إلى منزل الصياد من أجل الجنازة بوجود مكتبة مليئة بالمياه والأسماك في منزله . وعندها فهموا سبب عدم عودة الرجل خاليَ الوفاض من الصيد .

« إن فكرت لعام واحد ، ازرع بذرة .

وإن خططت لعشر سنوات ، اغرس شجرة .

أما إن فكرت لقرن آخر من الزمن ، علِّم شعباً .

لأنك إن زرعت بذرة ستحصد منتجاً لمرة واحدة .

وإن غرست شجرة سوف تحصد منتجاً لعشر مرات .

إما إن علَّمت شعباً فستحصد المنتج مئة مرة .

إذا قدمت لشخص سمكة فقد تطعمه ليوم واحد ، أما إن علَّمته الصيد فسوف تطعمه طوال عمره » .

استمع نهاد بانتباه شديد لكلام المعلم وفكَّر في نفسه :

ـ ينبغي أن لا يكون هذا الأمر صعباً .

وبذلك نجح في الصف ، وتخلَّص من غضب والده . كما نال استحسان المعلم أيضاً . وتخلَّص من وسمه بالمشاغب والكسول بين الأطفال .

وحسم أمره بأن يدرس ويقوم بالواجبات المنزلية المطلوبة منه ويقرأ كتباً .

وقرر نهاد مع بعض الطلاب في الصف الدراسة بجِدٍّ أكبر . وبعدما كانت هذه المجموعة تجتمع من أجل إثارة الشغب أصبحت تلتقي الآن من أجل الدراسة .

وتنهَّد الصف . وكان المعلم سعيداً . بينما تابع كل من نهاد وأصدقائه اتخاذ الخطوة تِلْوَ الأخرى من أجل النجاح .

* * *

الاعتذار

حاز متين على ثناء المعلِّمة بقولها :

ـ أحسنت لقد كتبت جيداً .

في حين انتظر شادي الجالس بجانبه الثناء من المعلِّمة أيضاً . فقد بذل جهداً كبيراً في كتابته . ولكن المعلِّمة وقَّعت على دفتره فقط ، ولم تقل أيَّ شيء .

استاء شادي جداً . وزادت مشاعر الغيرة داخله . وهو يتساءل عن سبب تفضيل المعلِّمة لمتين . وبينما كان يكتب بضعة أسطر أخرى أسفل كتابته أصابت يد متين قلمه . فأحدث خدشاً طويلاً على الدفتر بالقلم من دون قصد ، وشطب عليه بالكامل .

قال متين :

ـ المعذرة ، لم أقصد ذلك .

أمسك شادي بذراع متين يريد أن يصبَّ جام غضبه عليه . وجذبها بقوة حتى تمزقت الصفحة من دفتره . بما فيها الملاحظة التي أثنت بها المعلِّمة على كتابته .

انتبهت المعلِّمة عندما رفع متين يده . في الوقت الذي كان شادي يهدِّد فيه متيناً . ويتوعَّده بالمواجهة خارج المدرسة .

كان شادي مصراً على الشجار مع متين على الرغم من كونه أقوى منه . كما لم يكن التشاجر أمراً مألوفاً بالنسبة إليه .

استدارت المعلِّمة وأتت إليهم بسرعة كبيرة . ونظرت بغضب إلى شادي . عندها شكا إليها ما فعله متين قائلاً :

ـ لقد مزق متين دفتري .

ـ لم أقصد ذلك يا معلِّمتي .

استمعت المعلِّمة إلى كليهما . وعرفت أن شادي قد ارتكب خطأً ، وأن متيناً قام بذلك من دون قصد . ورغم معرفة شادي بذلك فقد هاجمه . ولم ينصت على الإطلاق لما قالته المعلِّمة . وهو يفكر بالانتقام لذلك من متين خارج المدرسة .

لو أن شادياً فكَّر بالأمر كان سيعرف الخطأ الذي ارتكبه .

غير أن الغضب والغيرة استحوذت على عقله ومنعته من التفكير .

كان الطلاب الذين أنهوا المدرسة في طريقهم إلى منازلهم منذ وقت طويل . في حين استعدَّ شادي للشجار . وفي حال هاجمه متين ، سوف يحمي نفسه وينطحه برأسه مهشِّماً وجهه .

وخرج مباشرة من الباب الرئيسي للمدرسة دون النظر وراءَه .

وتابع السير متظاهراً بعدم رؤيته قدومَ متين خلفه ، لكي يواجهه عند الزاوية تماماً ويلقِّنه درساً . وأمسك بالناي الذي أحضره من أجل حصة الموسيقا وبدأ ينتظر . لم يكن من الصعب على الطلاب المارين من هناك الشعور بأن شادياً ينوي القيام بشيء ما . وعلى بعد خمسة أمتار أو عشرة وقفوا ينتظرون ما سيحدث يدعون النظر إلى واجهات المحلات . وفي داخلهم اعتقاد أنهم سيشهدون شجاراً .

وبمجرَّد أن اقترب متين من شادي حتى رفع الناي الذي بيده يريد أن يضربه . ولكن متيناً أمسك بالناي ، وأنزله بيده . عندها فكَّر شادي بضربه من الأسفل ، حتى بدأ متين بالكلام قائلاً :

ـ شادي ! اعتذر منك رغم كل شيء . سامحني ، لم أقصد ذلك ، ينبغي أن أكون أكثر حذراً .

تنفَّس شادي الصعداء ، ولكنه فوجيء ولا يعلم ما سيقوله . ولم يتمكَّن من قول أي شيء . وشعر بالحزن . وذهب إلى المنزل وهو ما يزال يفكِّر بما جرى . وأخبر والدته التي لاحظت مدى قلقه عما حدث في المدرسة .

عندها قالت الأم لابنها :

ـ يا ولدي الجميل ، أنت مخطيء بذلك . لقد ظلمت صديقك الذي اعترف أنه لم يقصد القيام بذلك .

كما أنه اعتذر منك ، في حين كنت أنت من ينبغي عليه الاعتذار .

لم يجب والدته بأي شيء . وظل يشعر بالحزن بسبب الخطأ الذي ارتكبه حتى نام . وقد فكَّر جداً بالاعتذار . ولكنه خشي من تغيُّر نظرة أصدقائه إليه ، وتشويه مظهره المتفاخر والواثق . إذ لم يكن شادي الراغب بالاعتذار معتاداً على أمر كهذا .

وفي اليوم التالي كان شادي أكثر هدوءاً . ثم رفع يده قبل بدء المعلِّمة بشرح الدرس . فسمحت المعلِّمة له بالكلام .

وقف شادي .

ونظر إليه جميع الطلاب . وقد خاطر بكل شيء . إذ لم يعد يعنيه ما سيقوله أصدقاؤه عنه . وقال :

ـ أقدِّم بالغ اعتذاري إلى صديقي متين ، يا معلِّمتي . لقد قمت بإيذائه بسبب الغيرة رغم اعترافه بقيامه بذلك من دون قصد . ورأيت أضرار الغيرة والحسد بأم عيني . إنه خطئي ، وأنا محرج جداً ، وأكرر اعتذاري .

كان مضطراً إلى تقديم تفسير للطلاب . وبعد فترة من الصمت علا التصفيق في الصف . حيث نال شادي استحسان وتقدير أصدقائه ؛ لأنه أدرك خطأه . واعتبروا ذلك درساً جيداً لهم ، وأن الغيرة سلوك سيِّء .

* * *

معرض الدفاتر المدرسية الأول

أثار معرض الدفاتر الخاصة بالطلاب حماس أهاليهم أكثر منهم أنفسهم . وكان قدوم أولياء الأمور قبل ساعات من موعد الافتتاح وانتظارهم أمام صالة المعرض كافياً لتفسير ذلك .

دخل الجميع باندفاع استثنائي . وقد جلبت إدارة المدرسة بائع بالونات إلى المعرض . وكانت العيون كلها عليه . حيث كان يقوم بحركات جميلة للوافدين الجدد إلى المدرسة هذا العام أثناء نقله لبعض أغراضه إلى صالة المدرسة . حيث جلب ثلاثة صناديق أو أربعة إلى الصالة . كان فيها بالونات مختلفة الألوان كل منها على حدة . فأراد الأطفال اللعب بها بشدة ، لدرجة أنهم نسوا عرض دفاترهم .

وأمام هذه الأعين الصغيرة بدأ بائع البالونات عمله . وفتح أولاً علبة البالونات الزرقاء . وشغل آلة صغيرة كانت بيده . أمسك فوهة البالون ووضعها على فوهة الآلة ، وقام بالسحب حتى انتفخ البالون . وبسرعة كان يربطه ويلقي به إلى وسط الصالة . في حين توغَّل بعض الأطفال ممن لم يتحمَّلوا ذلك إلى مكان البالونات .

وبدؤوا برميها عشوائياً . وعندما رأى بائع البالونات ذلك صرخ عليهم بنبرة صوت تحذيرية قائلاً :

ـ اتركوا البالونات يا أطفال ، إنكم تعرقلون عملي . من الضروري أن أنتهي منهم بسرعة .

عندها تسمَّر الأطفال مكانهم .

وبناء على تحذير البائع أخذ بعض أولياء الأمور أطفالهم من بين البالونات وخرجوا .

في حين بدأ البائع بنفخ البالونات الحمراء ، ومن ثم الصفراء حتى تحوَّلت الصالة إلى حديقة أزهار ملونة بالبالونات .

غير أن الطلاب الصغار لم يتمكَّنوا من إبعاد عيونهم عن البالونات . وتابعوا مشاهدة البائع من بعيد بفضول بشأن ما سيفعله بتلك البالونات .

جمع البائع البالونات وبدأ بربطها بسرعة بالحبل . وفي النهاية رأوا شكل بوابة جميلة جداً منها . كان البائع قد وضعها على شكل باب مقوس يمتد إلى مدخل الصالة . ثم عاد إلى نفخ البالونات مرة أخرى . وفي لحظة امتلأ المكان بها . وقام بربطها بالحبل مجدداً من أجل تزيين الصالة بأشكال مختلفة . كان المنظر في الصالة يستحق المشاهدة .

وفي أثناء ذلك بدأ معلِّمو خمسة صفوف مختلفة بوضع الدفاتر التي ملأها هؤلاء الأطفال المتعلِّمين حديثاً للقراءة والكتابة بعناية على الطاولات المحيطة بأطراف الصالة . وانتظر كل طالب أمام دفتره . كانوا أشبه بالأطفال في مواسم الأعياد . يرتدون أحدث وأجمل وأفخم الملابس . وكان بعض الأهالي قد زيَّنوا أطفالهم كأنهم سيخرجون إلى المنصة . حتى أن البعض ذهب إلى مصفِّف الشعر لتصفيف شعر أطفاله ، كما كانت بعض الطالبات ينتظرن بشعرهنَّ المجعَّد .

وأخيراً بدأ الضيوف بالتوافد إلى المعرض . وكان هناك عدد من الصحفيين الضاغطين بسرعة على مصراع آلات التصوير ومذيعي التلفاز الذين سَئِموا من حمل كاميراتهم الثقيلة على أكتافهم ، يعملون على نقل ذلك الحماس الموجود لدى الأطفال وعائلاتهم ويلهثون وراء إعداد تقرير إخباري . وزيَّن بعض الطلاب الذين رأوا الكاميرات أنفسهم من أجل تصويرهم واتخذوا وضعيات لكي يظهروا بشكل حسن وجميل . حتى أن أولياء الأمور وقفوا بجانب أطفالهم والتمسوا السماح لهم بالتقاط الصور معهم .

انتظر الأطفال بفارغ الصبر موعد افتتاح المعرض في أقرب وقت ممكن . وربط شريطاً على مدخل المعرض . وكان أحد الطلاب

يرتدي زيّاً محلياً وبيده صينية عليها مقصان ، بينما كان طالب آخر ينتظر حاملاً بيده زجاجة عطر وقد ارتدى زيّاً محلياً آخر . ومن ناحية أخرى كان هناك الحلوى والشوكولا التي يعشقها الأطفال .

كانت الساحة الواسعة عند مدخل صالة المدرسة غاصَّة بأولياء الأمور . والجميع بانتظار افتتاح معرض الدفاتر الأول .

عندها أتى مدير المدرسة . وأفسح له أولياء الأمور المجال لكي يمرَّ . وعبر المدير ومساعديه من خلاله . وكان كل شيء جاهزاً ، بما في ذلك الكاميرات للتسجيل . نظف حلقه ونحنح مدير المدرسة قليلاً قبل البدء بالكلام . وبطرف عينه حصل على تأكيد من المصور وبدأ بالكلام . ولكن لم يسمع كلامه جيداً بسبب الضوضاء الموجودة في الصالة . وبجميع الأحوال لم يُعِرْ أحدهم أيَّ اهتمام بما سيقوله المدير . فقد كانت دفاتر أطفالهم هي كل ما يعنيهم . ورغم اطِّلاعهم عليها من قبل ، ولكن رؤيتهم في المعرض كانت مهمة جداً ومختلفة بالنسبة لهم .

وعند انتهائه من الكلام قص الشريط الأحمر برفقة أحد الضيوف القادم لزيارة المعرض موجِّهاً التبريكات والتهاني . ووضع العطر أولاً على راحة يديه ، ثم أخذ الشوكولا ، وبدأ الاطِّلاع على الدفاتر في الصف الأول . ويليه بقية الإداريين وأولياء الأمور .

وهنَّأ المدير المدرك انتظار الأطفال للمكافأة الجميع فرداً فرداً . وتلألأت عيون الأطفال الذين تمت تهنئتهم . وقاموا بكتابة بعض الأحرف على دفاترهم المؤلفة من كتابات متعددة الخطوط . وكان واضحاً جداً مدى سعادة أولياء الأمور بهذا النشاط .

ثم خرج المهرِّجون إلى المسرح ، وكان الأطفال سعداء للغاية . واستمر البرنامج بمتعة كبيرة . ونزل المهرجون من المسرح من أجل تسلية الأطفال واختلطوا معهم . وفي نهاية اليوم تعب الطلاب المستمتعين برفقة الموسيقا . فقد كان الجهد الذي بذل من أجل المعرض كبيراً جداً عليهم .

وفي نهاية البرنامج وأثناء عودتهم فرحين برفقة أهاليهم إلى منازلهم أمسكوا دفاترهم بقوة كأنهم سيحتفظون بها مدى الحياة . وانتظروا قدوم عام آخر من أجل رؤية برنامج جديد مفعم بالألوان كالسابق .

كان الأساتذة سعداء للغاية بسبب تبريكات أولياء الأمور لهم ؛ وسيواصلون العمل باندفاع أكبر للقيام بنشاطات جديدة للطلاب نتيجةً لما منحه عملهم من سعادة وسرور .

* * *

عيد الأم

بدأ الطلاب الذين سمعوا أن احتفالاً سيقام في المدرسة بمناسبة عيد الأم قبل أيام القيام بأشياء رائعة . وحين أخبرهم الأساتذة أن برنامجاً سيجري تحضيره من أجل الاحتفال بعيد الأم أعدَّ الطلاب قصائد وكتابات مليئة بالذكريات الجميلة . وكان الحماس مختلفاً لدى كل طالب ، لأن الأم بالنسبة إليهم أهم ما في الوجود . وأكثر ما يحبونه ، والإنسان الأقرب إليهم . ولهذا السبب ينبغي أن يكون البرنامج مليء بالنشاطات . وسيشارك أولياء الأمور فيه . وسيتم اختيار والدة العام . وبهذا الخصوص كان إداريو المدرسة بصدد القيام بشيء لم يسبق أن قاموا به حتى الآن . ولذلك طُلب الإبلاغ عن الوقائع التي رأوها مهمّةً جداً بشأن الأمهات .

وبينما كانت الحماس في أقصى درجاته تابع كل صف الاستعدادات المكلَّف بها بلا هوادة . ثم غادر الجميع بشوق .

ويوم البرنامج امتلأت الصالة بالأهالي . وقُرئت فيه قصائد عن الأمهات . من ضمنها قصيدة ألقتها بشرى قالت فيها : « يؤلمني قلبي يا أمي » . قرأتها بصدق وإخلاص لدرجة سمع فيها أصوات

بكاء في الصالة . وأدمعت عيون الجميع .

ثم قرأت عائشة قصيدة للشاعر نجيب فاضل يقول فيها :

أمي

امسحي بيدك رأسك الأشيب

واستغرقي في الخيالات المظلمة يا أمي !

أما قلبك المرتعش إلى ريح الحظ

أطلقيه مثل ريشة خفيفة يا أمي !

لا تبالي لن يطولَ هذا الظلام

بعد كل ليل هناك ليل آخر

تنهَّد الأطفال ، وبكت الأمهات

وبعيون دامعة لا ترحلي يا أمي !

نجيب فاضل قيصاكورك

كما تضمن البرنامج مسابقة رويت فيها ذكريات لا تُنسى عن الأمهات :

حيث روى بعض الطلاب بأسلوب ساخر مدى جمال النعال التي ترميها أمهاتهم ، جعل الطلاب وأولياء الأمور يغرقون في الضحك .

في حين تحدث البعض الآخر عن الارتباط العاطفي بينهم وبين أمهاتهم .

حتى أن أحداً لم يصدر أيَّ همس في الصالة أثناء حديثه . فقد حبس الجميع أنفاسه واستمعوا إليه .

ورغم رفضها في البداية فقد قررت رواية قصتها بإصرار من أصدقائها :

ـ زرت أمي في المقبرة يوم الجمعة الماضي . كانت تنتظر بهدوء وصمت ، لا أحد بجوارها . ربما اشتاقت لي .

كانت تلك الكلمات مؤثرة جداً لدرجة ضمت فيه الكثير من الأمهات اللاتي يملأْنَ الصالة أطفالهم . وشمُّوهم وقبَّلوهم من خدودهم .

ـ أرى الكثير منكم يستنشق ويقبل أطفاله . ما أجمل ذلك ، لا تفوِّتوا هذه الفرصة ؛ لأنها لن تعود مرة أخرى إنْ ولَّت . . . أود أن أقبل أمي ولو لمرة واحدة فقط . . . ولكن لا أستطيع . . . في داخلي نار لا تنطفىء أبداً . ينبض قلبي بسرعة كلما سمعت كلمة عن الأم .

توفِّيت والدتي في حادث قبل سنوات . ونشأت من دون أم . أعرف جيداً معنى فقدان الأم . لقد تعلَّمت العيش مع الألم . في

بعض الأحيان كانت عماتي يعتنين بي ، وفي أحيان أخرى اعتنت بي خالتي . ولكنْ هناك شخص واحد هو حقاً بمثابة الأم لي ، ويستحق كل أنواع الثناء والجوائز . . .

وبينما واصل مَنْ في الصالة الاستماع كأنهم مسحورون تابعت الطفلة الكلام قائلة :

ـ اسمي توبا . ثم توقفت وابتلعت ريقها . ونظرت إلى الصالة نظرة تبدو كأنها لم تَعُدْ تريد الكلام . في حين كان الحضور يستمعون بتركيز كبير إلى توبا .

ـ هناك امرأة تعاملت معي مثل أم ولم تميّزني عن ابنتها خديجة . أنا ممتنَّة لها . هي أمي . أدعوها بالأم . وهي الآن بيننا تجلس هنا معكم في الصالة . . .

تلفَّت الجميع حوله بفضول . وهم مهتمون جداً بمعرفة هوية هذه المرأة المضحِّية .

ـ أحياناً تمشط شعري ، وفي أحيان أخرى تجلب حقيبة طعامي أثناء خروجي من الباب . . .

تلك يد تستحق التقبيل ! لأن الجنة تحت أقدامها . ولهذا أقترح اختيارها ، ليس فقط كأفضل أم لهذا العام ، بل للقرن كلِّه . وأدعوها للصعود إلى هنا ، وعندما قالها ظن أولياء الأمور

الموجودون في الصالة أن أحداً لن يخرج ؛ لأنه من المستحيل بقاؤه صامتاً إلى هذا الحد .

ـ والدتي العزيزة هي السيدة رضية . عندها علا تصفيق مذهل داخل الصالة . مَنْ هي السيدة رضية ، لا أحد يعرفها . ألا تريد الصعود إلى المسرح .

ثم دعتها توبا مجدداً مع تنهيدات .

نهضت السيدة رضية من مكانها محرجة . وأثناء مسيرها نحو المنصة بخطوات ثقيلة وقف جميع مَنْ في الصالة يصفِّقون لها بحرارة . شعرت السيدة خديجة بالحرج ، لذلك كانت تنظر أمامها فقط . لقد قامت بذلك محبة لله تعالى ورضاه ، وكانت عوناً لتوبا من أجله وحده . ولم تكن ترغب بإفشاء ذلك . ولهذا فقد فاجأتها توبا .

تعانق كلاهما على المسرح مثل أم وطفلتها الوحيدة كما قبَّلت توبا يد السيدة رضية مرات كثيرة .

امتدَّ هذا العناق على المسرح مدة طويلة برفقة التصفيق . وذرفت كلاهما الدموعَ . وعيون الكثير من أولياء الأمور قد مزقت قلوبهم واستمرت عواطفهم بالتدفق .

وزادت شدة عاصفة التصفيق أثناء نزولهم من المسرح . وانتقلت

من الصالة إلى الخارج . كان هذا إشادة بالخير الذي بذل . وتقديراً ومكافأة على تصرفها الجميل .

وفي الختام سيتم الإعلان عن الأم الفائزة لهذا العام . تابع الجميع هذه اللحظة حابسين أنفاسهم . غير أن مساعدَ المدير السيد أحمد تحدَّث عن مشاعره المرتبطة بوالدته إلى الموجودين في الصالة قبل فتح الظرف الذي يُمسكه بيده قائلاً :

ـ عندما كنت في التاسعة من عمري اضطررت إلى مغادرة القرية التي أعيش فيها . كان عليَّ الذهاب إلى مدرسة داخلية . تمسكت بسروال والدتي ، وبعينين دامعتين ، رفضت الانفصال عنها . عندها جثتْ أمي على ركبتيها وأخذت تمسح الدموع على خدي . وقبَّلتني مراراً وتكراراً من عيني الدامعتين وقالت :

ـ أنا أيضاً لا أريدك أن تذهب . ولكنك ستدرس وتصبح رجلاً عظيماً . ولهذا ستدرس وتدعو لي . ثم لاعبتني وأرسلتني إلى الدراسة . والآن أدعو لها كلما ذكرتها أترحم عليها . كما أدعو لجميع الأمهات . لأنهنَّ كلُّ ما نملك . ومن دونهنَّ لا وجود لنا . أسألُ اللهَ لهنَّ طولَ العمر وأن يرزقهنَّ الجنة .

ثم فتح السيد أحمد الظرف برفقة التصفيق . وحينما قرأ الاسم داخل الظرف ضجَّت الصالة بالتصفيق مجدداً . كانت السيدة رضية

التي اعتنت بالطفلة توبا كابنةٍ لها من أجل مرضاة الله وحده هي الأم التي اختِيرت والدة العام .

كانت السيدة رضية حزينة ومحرجة عند تسلمها للهدية التي منحت إليها . ثم تمنَّت لو كانت والدة توبا موجودةً ، ولم تكن تعرفها أبداً . واعتنت حليمة بمحمد الصغير وربَّته مثل ابنها وحمته من كل شيء . . .

* * *

طابور المقصف

انتشر خبر إخراج شادي لخديجة من طابور المقصف ووقوفه مكانها بسرعة بين الصفوف .

كان شادي يرى نفسه قوياً . ولهذا كان يصطف في الطابور مهدِّداً الطلاب الذين وقعت عيناه عليهم . وبينما كان بعض الطلاب ينتظرون في الطابور مدَّة خمس دقائق كان هو يتسوق على الفور .

عندما سمعت توبا الخبر توجَّهت بسرعة إلى المقصف . والفوضى مستمرة أمامه . وكان بعض الطلاب الواقفين بجوار شادي يسعون إلى التخلُّص من طابور المقصف من خلال توثيق علاقتهم به . ويجازفون بإلحاق الضرر بالآخرين من أجل مصالحهم الخاصة . وهو أمر غير إنساني على الإطلاق .

كان هناك الكثير من الطلاب من أمثال شادي ممَّن لا يعنيهم الانتظار في طابور المقصف . وعلى الرغم من تقديم شكوى عليهم مراراً وتكراراً ، ولكنهم استمروا بتصرفاتهم متعنِّتين ورافضين الانصياع لذلك .

لم ترضَ توبا السكوت إزاء هذا الظلم . وأنها ستواصل السعي وراء الحقيقة مهما كلف الثمن . فقد استاءت للغاية حينما رأت ترهيبه لصديقتها المفضلة خديجة . خاصة أن والدة خديجة السيدة رضية ما تزال تعتني بتوبا كأم لها .

فكَّرت توبا بما عليها فعله لبعض الوقت . استمعت إلى خديجة . وعندما أخبرتها عن الظلم الذي ارتكبه شادي في حقها ركضت توبا على الفور إلى شادي الواقف في الصف الأمامي .

نظرت إليه بغضب شديد وصرخت :

ـ شادي .

لم يعرها شادي أيَّ اهتمام . فنادت مرة أخرى :

ـ أنا أتحدث إليك يا شادي !

فرد شادي بأسلوب متعالٍ :

ـ ما الأمر ، موبِّخاً توبا .

ـ اخرج من هناك ، لقد ظلمت خديجة .

ـ وإن لم أخرج ماذا سيحدث ؟

ـ ستخرج فوراً ، وتعتذر من خديجة . ولن تظلم أحداً بعد الآن .

ـ انصرفي من هنا . أليس لديك أيُّ عمل ؟

ـ لا عملَ لدي . أقول لك : اخرج من الطابور واترك مكانك لخديجة .

ـ وللمرة الثانية قال : وإن لم أفعل ماذا سيحدث ؟

مدت توبا يدها رغماً عنها وأمسكت ياقة معطف شادي وسحبته منها إلى خارج الطابور . انقلب شادي على الأرض أمام أعين الطلاب . لم يفهم ما أصابه . قفز على قدميه لحظة وقوعه وإذلاله أمام الطلاب . وكاد يضرب توبا غير أنَّ يداً قوية أمسكت ذراعه . عندها التفت شادي إلى الوراء ليجد مساعد المدير السيد أحمد أمامه .

لم يكن يعلم ما سيقوله . وفي حالة اندهاش حذره السيد أحمد قائلاً :

ـ هيا امشِ أمامي .

مشى شادي يائساً وجميع الطلاب ينظرون إليه . وتابع المسير قُدُماً بينما أشار السيد أحمد إلى توبا وخديجة بالقدوم أيضاً .

وحينما دخلوا إلى المكتب في الطابق الثاني . حينها فكَّر شادي بما سيحصل لهم . فقد كان أمراً سيئاً ؛ إذ تم استدعاء والدته إلى المدرسة مجدداً ؛ لأنها حذرته للمرة الأخيرة بشأن ذلك .

قال السيد أحمد :

ـ أخبروني ما الذي حصل .

أخبروه بما فعله شادي .

ـ أعلم أنك لن تكذب ، وأن ما قالوه صحيح . حسنٌ هل ما فعلته صواب ؟

حنى شادي رأسه وقال :

ـ لا ، لم أتمالك نفسي .

ـ لماذا كنتَ ستضرب توبا ؟

ـ لأنها سحبتني وألقتني على الأرض .

ـ أَوَلَمْ تكن محقة ؟

ـ ربما كانت محقة ، ولكن أهينت كرامتي وشعرت بالحرج .

ـ وعلى أي حال إن كان أحدهم أقوى منك ، وقال : أنا قوي . وضربك ، ماذا سيحصل ؟

حنى شادي رأسه مجدَّداً ولم يجب .

ـ إن الخطأ الذي ارتكبته لا يسمح لك بالاعتداء على حق أي شخص . وستنتظر دورك ؛ لأنه من غير المنطقي أبداً ظلمُك لأحدهم فقط من أجل أن تشتري قبل دقيقتين . ولا تنسَ أن هذا حقُّها المشروع . لهذا عليك الاعتذار من توبا وخديجة . كما عليك

الاعتذار من جميع الطلاب الذين ظلمتهم ، وليس منهما فقط .

وإن لم تفعل فلن أحتاج حينها إلى أي شيء حتى أعاقبك . يكفي فقط أن أستدعي والدتك . وأنت أعلم بما سيحدث حينها .

ـ أرجوك لا تقل لها . لن أشاغب بأي شكل من الأشكال بعد الآن . ولن أُؤذي أي طالب .

ـ أنا أثق بك . وأصدِّق أنك سَتَفِي بوعدك . ثم دعا توبا وخديجة الواقفتين على الباب إلى الداخل . واعتذر شادي من كليهما .

ـ حقكم عليَّ .

قال هذا ؛ لأن مساعد المدير السيد أحمد أخبره قبل قليل بأنه حققهم المشروع .

ـ لن أفعلها مرة أخرى .

كما سامحت كلٌّ من توبا وخديجة شادياً .

وبينما كان شادي يخطو خطواته خارج الباب لأجل بداية مختلفة كان الطلاب الفضوليون ينتظرون عند مكان عبوره . ولكنه اجتاز دون أن يقول شيئاً لأيٍّ أحد .

وعندما حان موعد الاستراحة التالية عاد طابور المقصف مثلما كان سابقاً . والشيء الوحيد الذي تغيَّر هو أن شادياً كان ينتظر في الطابور .

* * *

هنا مدرسة مشاغبة

كان الصف أشبه برحلة عبر الزمن تقريباً . لم يكن مكان وجوده معروفاً . ربما كانوا داخل المدرسة في مكان غير معروف منذ سنوات .

كان الشغب كثيراً . حتى أن الصف لم يعد صفاً حقيقةً . حيث قام الطلاب الذين علموا أن معلِّمهم في إجازة بصنع طائرات ورقية من صفحات دفاترهم أولاً ، وإلقائها في الهواء . حتى امتلأ المكان بالأوراق .

ثم تجاوز الشغب حدَّه على نحو لا يصدِّق . وتبعه أمر أكثر غرابة : فقد صنعوا كوخاً من خلال وضع الطاولات فوق بعضها البعض . كما وضعوا داخله مقاعد للجلوس ، وكتبوا عليه بقلم التخطيط « هنا مدرسة مشاغبة » . وسيقومون بكافة أنواع الشغب اليوم .

فكَّروا بكل الأمور غير المسموحة في المدرسة . على سبيل المثال لن يكون هناك دروس في هذه المدرسة . ولهذا السبب تركوا جميع الحقائب عند الباب . فتشكَّل جبل من الحقائب المكدَّسة فوق

بعضها بعضاً . وأطلقوا عليه اسم « جبل الحقائب » . وبما أنه لا يوجد كتب كان بإمكانهم التصرف وفقاً لأهوائهم .

رأوا أن كوخاً واحداً غير كاف . فقاموا بصنع واحد آخر بجوار الباب تماماً . وكتبوا عليه اسم « كوخ الحيوانات الأليفة » . حسنٌ ، ولكن أين سيجدون حيوانات أليفة الآن . فكَّروا بذلك . حكَّ أحدهم رأسه ، وقال : « وجدتها » . كان هذا الطفل يتابع الكثير من الأفلام . فقد كانت تصرفاته مثل نص سينمائيٍّ تماماً . كما كان يظن نفسه مثل أرخميدس . وبجميع الأحوال لا بُدَّ أنه وجد شيئاً مهماً . نظر الجميع إليه . كان رجائي أحد جالبي الحظ في الصف . حيث كانت عيناه الصغيرتان تتحركان باستمرار . كما كان نتف أطراف حواجبه ميزة أخرى لديه أيضاً .

في الواقع لم يَعْدِ المتسائلون عما وجده مهتمين كثيراً . ولكنهم يتوقَّعون أمراً للشغب فحسب . فقد سَئِموا من القيام بالأشياء نفسها كل يوم ، ويركِّزون على الشغب اليوم . حتى أنهم لا يعلمون لماذا هم مشاغبون .

ولكن دائماً يمكن تصوُّر أفعالهم على أنها شغب .

قال رجائي مجدداً :

ـ وجدتُها .

نظر جميع مَنْ في الصف إليه وقالوا :

ـ إذاً قل ماذا وجدت ، بما أنك أرخميدس الآن .

ـ قطة صغيرة . . .

لم يكن هناك قط في الصف . نظر الجميع إلى بعضهم بعضاً ، واعتقدوا أن رجائي هذا قد فقد عقله . ولكنه أشار إلى النافذة .

ـ إنها قطة وهي بيضاء .

ركض الجميع نحو النافذة . أدَّى الازدحام أمام النافذة إلى شجارات كثيرة . وقد تشكَّلت تلة من الأطفال فوق الباقين في الأسفل الذين كانوا على وشك الاختناق بينما كان البقية يستمتعون بطريقتهم .

ـ تراجعوا ، هكذا أرعد صوت مثل قذيفة مدفع . لم يعرفوا ممَّن جاء هذا الصوت ، أو من أين أتى . وتراجع الجميع جانباً . عندها نفخ مَنْ في القاعة نافضين الدروع التي فوقهم . وفي النهاية كان ضرر هذا الشغب من نصيبهم .

لم يكن سهلاً جلب القطة إلى الصف . إنْ خرجوا من الباب سيقبض عليهم أحد الإداريين أو المدرسين حتماً . إذن لا بُدَّ من تفكيرهم في حلٍّ آخر . كانت هذه مهمة رجائي . لهذا تركَّزت كل العيون عليه .

قال رجائي :

ـ حسنٌ ، سأحضر هذه القطة . والجميع ينظر إليه بفضول حول كيفية قيامه بذلك . خلع قميصه وطلب من بعض الطلاب خلعها أيضاً . وربط أطرافها . وأمسك بعضٌ من أقوى الطلاب في الصف بإحكام الحبل المؤلَّف من القمصان .

تدلَّى رجائي من النافذة إلى الأسفل . وفي أي لحظة يمكن أن يقع . وإن حدث ذلك سينكسر عضوٌ فيه لا محالة . بينما العيون المليئة بالخوف والحماس تواصل متابعته .

الآن ، وبعدما تدلَّى من النافذة وأصبح خارجاً . كان إمساك القطة مسألة وقت . وأخذ يطاردها وهي تركض . في حين كان أصدقاؤه في الصف يهتفون له من النافذة من أجل تشجيعه . والناس في الأبنية المجاورة يشاهدون ذلك . وحينما أمسك رجائي القطة علت عاصفة كبيرة من التصفيق . وقد نسي جميع مَنْ في الصف أنهم طلاب . وتصرفوا وفق أهوائهم بعواطف صبيانية . ثم رمى رجائي القطة إلى الداخل من خلال النافذة . ولكنها التصقت مثل سحلية بظهر أحد الطلاب .

وبينما كانت الجلبة مستمرة في الصف كان رجائي يطارد دجاجة مختبئة . حتى حشرها في الزاوية وقبض عليها . وأصوات النقيق

تملأ المكان . ولكن رجائي لم يهتم بأي شيء . وأحضرها أمام نافذة الصف . ولكن لم يستطع رميها منها ؛ لأنه يعلم أنها لا يمكنها الطيران . وبجميع الأحوال كان وقت الدخول إلى الصف قد حان . تسلَّق من الحبل المصنوع من القمصان . وعند دخوله إلى الصف كانت الدجاجة تلتصق بكل مكان مثل القطة . والطلاب الخائفون من الدجاجة والقطة يصرخون بصوت عالٍ .

ثم وضع الطلاب الحيوانات في زاوية الكوخ الذي صنعوه . وبعيون مليئة بالخوف كانت القطة الصغيرة تنظر إلى هذا الازدحام . بينما كان رجائي يحاول إغلاق باب الكوخ حتى لا يتمكَّنوا من الهرب . ولكن طارت الدجاجة مُصدرةً صوت نقيق . عندها سقط الطلاب أرضاً من الخوف . وتكدَّسوا فوق بعضهم بعضاً . والدجاجة تحاول الطيران من طرف إلى آخر داخل الصف .

وأخيراً وقعت على خزانة بجانب السبورة . وعندما أرادوا الإمساك بها تبعثرت اللوحات الموجودة في الصف على الأرض . كما كُسرت أحواض الأزهار الموجودة على حافة النافذة وانتشرت الأتربة في كل مكان . ووقع مكبِّر الصوت الذي يستخدمه المعلِّم أثناء شرح الدرس وانكسر . وتحطَّم الإناء الذي على طاولة المعلِّم . وفي أثناء ذلك نسي الأطفال الساعين خلف الدجاجة والقطة . حيث خرجت من الكوخ وتوجَّهت نحو الباب . ولكن

أُنقذت من السحق في اللحظة الأخيرة .

في تلك الأثناء رنَّ الجرس . ولكن لم يسمعه أحد . حيث فتح أحد الطلاب من صف آخر الباب ونظر إلى الداخل . كان الطلاب كالمجانين . عندها تسربت القطة من الباب المفتوح إلى الرواق . ومع استمرار الشغب في الداخل ارتدَّ صدى الضجيج في الرواق . وصرخ الأطفال مثل المجانين . وفوجىء الجميع من الضجيج المنتشر فجأة . ثم خرج الطلاب وراء القطة إلى الرواق . وانقلبت المدرسة رأساً على عقب . وأصبحت السيطرة عليهم أمراً مستحيلاً . وتسمر الإداريون والأساتذة مكانهم عاجزين عن فعل شيء . والطلاب يركضون من طرف إلى آخر .

أمسك المستخدم في المدرسة القطةَ . في حين طارت الدجاجة من نافذة الرواق أخيراً وهربت خارجاً . وانتهى التدافع والجنون معه . وعاد رجائي وأصدقاؤه بهدوء إلى الصف . وقد غلب عليهم الشعور بالندم عندما أدركوا ما تكلفة القيام بالشغب . وانسحبوا إلى مقاعدهم . ورتبوا بسرعة البرق الصفوفَ التي تحولت إلى ساحة حرب . وقد بدؤوا بانتظار ما سيحدث لهم . وحاولوا تمضية الوقت بطريقة أو بأخرى في حالة من الغموض لا يعلمون ما سيحل بهم . ثم جاء معلِّم آخر إلى الصفوف . وأخبرهم أن معلِّميهم لن يأتوا اليوم أيضاً . وهو أساس المشكلة .

كانت الأجواء التي حولت المدرسة إلى جنون عند غياب المعلِّم عن الدرس هادئة الآن. . .

كان السيد جلال الداخل إلى الصف منذ قليل ، مساعد مدير المدرسة الغاضب . لم يصدر أي همس من الصف . حيث بدأ الجميع بتلاوة الأدعية التي يعرفونها . كان الأستاذ جلال يجوب الصف مرات كثيرة . ثم ذهب إلى الطاولة وجلس لبعض الوقت . وحدَّق بالصف بأسلوبه الخاص وقال فقط :

ـ ماذا يحدث هنا ؟

تابع الصف هدوءَه . في حين تحدَّث السيد جلال بشكل أكثر حدَّة هذه المرة قائلاً :

ـ لقد سألتكم ما الذي جرى ؟

نظر الطلاب إلى رجائي الذي شعر كأنه محكوم عليه بالإعدام . ووقف مثل مجرم مُدانٍ . ليس عليه أثر للشغب الذي شهده .

تحدَّث عما جرى . بينما احتفظ السيد جلال بصمته ؛ ممَّا يشير إلى أمر خطير .

استنفد رجائي نَفَسه بعدما لم يبقَ لديه شيء ليقوله .

قال الأستاذ جلال :

ـ شغب إذن ، ومدرسة مشاغبة. . .

أخذ نَفَساً عميقاً ، ثم بضعة أنفاس أخرى . . .

وعيون جميع الطلاب وآذانهم كانت عليه . وكاد يخرج من بين شفتيه الكلام الأخير . حتى غرق في الضحك مرة أخرى وقال :

ـ مدرسة مشاغبة إذن .

لم يتمكن الطلاب من فَهْمِ ذلك الضحك .

إذا كان هذا السيد جلال ، فهذا يعني أمراً خطيراً . وقال :

ـ حسنٌ ، وأنا أيضاً سأقوم بأمر جنوني . وبذلك تصبح المدرسة مجنونة بالكامل . سأطردكم من المدرسة وأستدعي أولياء أموركم . . .

عندها حلَّت أصوات البكاء محل الصمت في الصف وأخذت بالتزايد . . .

نهض السيد جلال وتوجَّه بسرعة نحو الباب . ثم عاد وتحدَّث للصف في وقت اعتقد الجميع فيه أن أمرهم قد انتهى قائلاً :

ـ شغب إذن .

وتابع الأستاذ جلال كلامه بينما الجميع في حالة من الندم الشديد لِمَا قاموا به . وتحدَّث عن الخطأ الذي ارتكبوه . وشرح أن المدرسة مكان للتعلُّم ، وليست مكاناً للشغب . وأوضح ما قد ينجم عن تلك الأفعال . ومؤكداً مرة أخرى على أن المدرسة مكان للتعلُّم .

ـ اسمعوا سأقوم بأمر جنوني آخر معكم . وعيون الجميع مركزة على السيد جلال . إنه فعل غير متوقَّع مني ، أي هو جنون : سأعفو عنكم لمرة واحدة. . .

صرخ الجميع مثل المجانين . ودموع الفرح تتدفق من أعينهم هذه المرة . وتعهدوا بعدم الشغب والقيام بأمر جنوني والدراسة من الآن فصاعداً .

* * *

مسابقة قراءة الكتب

في ذلك اليوم كان هناك إعلان لافت للانتباه على باب المدرسة . كان زاهياً ومتعدِّد الألوان . كان فيه صورة طفل وكتب مكدسة فوق بعضها بعضاً . كان الإعلان عن قراءة الكتب . ومن الوهلة الأولى كانت الرسالة المراد توضيحها ، أو إيصالها في هذا الملصق تعبِّر عن نفسها : اقرأ كتاباً .

كما كان العنوان على الملصق مثيراً : اقرأ واربح ! ووضعت قوائم بأسماء الكتب التي ستُقرأ . إضافة إلى تاريخ الاختبار والجوائز بالطبع . . .

ـ ابنتي البرتقال .

ـ ابتسامة المعلِّم والطلاب .

ـ رحلة قوس قزح .

كان الطلاب المصطفون حول الملصق يتحدَّثون عن رغبتهم بالفوز بتلك الجائزة ، ولم يكتفوا بذلك ، بل ادَّعوا أنهم سيحرزون المركز الأول في المسابقة من دون شك . عندها صرخت بشرى

الطالبة الأكثر اجتهاداً في الصف بمجرد رؤيتها للملصق قائلة :

ـ كنت أنتظر هذه اللحظة . وستكون هذه الجائزة لي . . .

وبجميع الأحوال كانت الجائزة الأكبر لقراءة الكتب . وستكسب بالقراءة أيضاً . ولهذا سجَّل الكثير من طلاب الصف للمشاركة في المسابقة .

وأثار الحماس لدى الجميع . وبدأ الكثير من الطلاب بقراءة الكتب بشكل متواصل . وازداد فجأة عدد القراء حتى في فترات الاستراحة أيضاً .

وقد ازدادت المنافسة داخل الصف إلى درجة كبيرة بحيث انعكس هذا الوضع على أولياء الأمور . وشاركوا أطفالهم في قراءة الكتب مثل مدرِّب رياضي ، وأعطوا تكتيكات مختلفة للقيام بذلك .

كانت الجائزة الأولى جهاز حاسوب . كما كان جهازاً محمولاً وقطعه جيدة للغاية ؛ ممّا جعل الجميع مهووساً به . أما الجائزة الثانية فكانت آلة تصوير ، وهدايا جميلة وصولاً إلى الجائزة العاشرة . وكان إداريو المدرسة والأساتذة سعداءً جداً نتيجة بدء طلاب لم يسبق لهم قراءة أي كتب بشراء الكتب وقراءتها .

وشرع الطلاب في طرح الأسئلة فيما بينهم للتحضير للاختبار ، يقرؤون صفحات الكتب بفرح وسرور كأنهم يبتلعونها .

كان واضحاً أن الاختبار الذي يحضِّر له الجميع بحماس لن يكون سهلاً .

كما أعدَّت لجنة الاختبار التي تم إنشاؤها في المدرسة تقييم نقاط حساسة جداً .

وعندما حان موعد الامتحان لم يستطع الطلاب تمالك أنفسهم من شدة الحماس .

وعقب الاختبار كان قيام أولياء الأمور مع أطفالهم بالتقييم مثيراً جداً للاهتمام . حتى أن أحد أولياء الأمور أمسك يد ابنته ، وذهب إلى مساعد المدير السيد أحمد وقال له :

ـ والله يا أستاذ قرأت الكتب مع ابنتي مرتين .

ويقول آخر :

ـ لقد قرأنا جميع الكتب كأسرة واحدة .

قال السيد أحمد مبتهجاً :

ـ إذن لقد حققت المسابقة هدفها ، وقرأ الجميع . ما أجمله .

ثم قال آخر :

ـ لماذا لا ننظِّم هذه المسابقة كلَّ سنة يا أستاذ .

رد السيد أحمد قائلاً :

ـ قسمة ونصيب .

وفي اليوم التالي . . .

انتشر خبر عن صدور نتائج مسابقة قراءة الكتب في المدرسة . مما زاد التوقُّعات لدى الطلاب والأهالي كثيراً . وكان كل طالب قد قرأ الكتب واثقاً من الفوز . ورغم أن حديث البعض عن مدى صعوبة الأسئلة وأنها خاطئة وغير منطقية ، لكن المسابقة انتهت .

ثم خاطب السيد أحمد الطلاب من جهاز الإذاعة قائلاً :

ـ أعزائي الطلاب ! قبل إعلان نتائج مسابقة قراءة الكتب أودُّ أن أقول بضع جُمَلٍ عن القراءة .

إن قراءة الكتب هي دواء : ينقذكم من مشاكلكم .

لأنها تزيد من بهجتكم بالحياة ، وتُطوِّر عالمكم الفكري ، وتنضج أفكاركم .

قراءة الكتب تفتح الذهن .

وتجعل نظرتكم للأمور والناس تبدو أجمل . وتزيد من معرفتنا وتُثري مفرداتنا . وتزيد من قوَّة معرفتنا وتعزِّز من قدرتنا على الكلام .

وترفع من ثقافتنا العامة . وتُساهم في جعلنا مؤثِّرين وأَكفاءَ . وتزيد النجاحات في حياتنا . وتنمِّي قوة الخيال لدينا .

القراءة تفيد في الشعور بالمتعة ، وتزيين عقولنا ، وتحسين قدراتنا على اتخاذ القرارات . وتنمِّي الإنسان وتُسهم في جعلنا أناساً فاضلين .

القراءة هي رحلة طويلة ؛ تمتد من المهد إلى اللحد ، ويجب أن يواصل طلابنا الذين بدؤوا القراءة مع المسابقة هذه العادة فيما بعدُ . فقد تراجعت القراءات بالتزامن مع انتهاء المسابقة . لأن القراءة أشبه بحفر بئر بواسطة إبرة ؛ تحتاج إلى الصبر والعزيمة . كما أنها بحث وحقيقة وصدق وسعي جميل . . .

في أثناء ذلك كان الطلاب ينتظرون نتائج المسابقة . ومن دون إطالة في الكلام قال السيد أحمد :

ـ سأعلن أسماء الطلاب في المراكز الثلاث الأولى . ويمكنكم الاطِّلاع على نتائج المسابقة من لوحة المدرسة .

خيَّم الصمت على المدرسة . ثم قرأ السيد أحمد بسرعة أسماء الفائزين بحسب مراتبهم .

كانت أصوات التصفيق التي علت من الصفوف من أجل الطلاب الفائزين بياناً جسَّد روح المنافسة بين تلك الصفوف .

وتستحق بالفعل رؤية الفرحة لدى الفائزين في المسابقة .

وفي اليوم التالي وزَّع مدير المدرسة الجوائز على الفائزين في المسابقة خلال حفل أقيم لهذا الشأن . في حين هنَّأ الطلاب أولئك الفائزين بالتصفيق لهم .

كانت الزيادة في تعداد القراء انطلاقاً من إجراء المسابقة في المدرسة واضحة .

وبعد أسبوع . . .

جاء مفتشان إلى المدرسة . وبيدهما ورقة شكوى ، ولكن أخفوا هوية صاحبها . قالوا فقط : إنها لأحد أولياء الأمور .

ثم استجوبوا الكثير من الأساتذة والطلاب في المدرسة . بينما يحاول غالبية الطلاب القلقين لذلك فَهْمَ ما يجري .

فقد اشتكى أحد أولياء الأمور الجشعين من استبعاد طفله من المسابقة . مما أغضب الكثير من الطلاب . وكان المعلِّمون يعبِّرون عن مدى حساسية الأمر وهشاشته . ولاموا بدَورهم ذلك الوالد على فعلته .

لم يتغيَّر شيء . كما سجلت الأسماء بحسب نتيجة المسابقة . وهكذا بقيت شكوى ولي الأمر هذا محفوظة في ذاكرتهم كسلوك من شأنه أن يكون مثالاً عما يمكن للغيرة والحسد أن تفعله بالإنسان .

كما ازدادت القراءة عند الطلاب الذين رأوا مدى فائدة المطالعة من خلال الكتب القليلة الأولى .

* * *

يوم عرفة

كانت عطلة المدارس . قال السيد أحمد الذي أراد الذهاب مع ابنه إلى الجامع ، وتعليمه واجباته تجاه زيارة المقابر مستفيداً من العطلة :

ـ استعد يا بني .

عندما سمع أنس أنه سيذهب مع والده إلى الجامع تذكَّر صديقه في المدرسة . كان اسمه إمره . كان طفلاً هادئاً ومحبوباً وغامضاً دائماً . كان لطيفاً ومؤدباً في المحادثات التي يضطر فيها إلى لفظ حرف الراء . هناك شعور بوجود شيء من النقص الدائم يظهر في تصرفاته . يبدو أن لديه قلقاً دائماً خلف عينيه السوداوين تلك . حتى أصبح الشعور الذي يعتقده بوجود نقص سمة مميزة لشخصيته دائماً .

ذات مرة وأثناء قيام السيد أحمد بجولة في حديقة المدرسة التقى به . فأتى إليه وأمسك يده . وسارا معاً نحو المقاعد المطلَّة على الحديقة . كان يرجف مثل طير خائف . لعلّه بسبب الحماس ، قالها

السيد أحمد في نفسه . ثم جاء ابنه أنس الذي رآهم جالسين على المقعد راكضاً . كان السيد أحمد يكلِّم إمره بشكل عشوائي محاولاً التقرب منه . ثم توقف فجأة عندما وصل الموضوع إلى عائلته . وانقلب إمره المبتسم والضاحك مثل العندليب فجأةً .

ـ ماذا يعمل أبوك ؟ كان السؤال الذي عقد لسان إمره .

ابتلع إمره ريقه . والحزن في عينيه السوداوين غير محدود . كأنهما كلفتا بإحصاء عدد الطوابق في الأبنية الموجودة في الجهة المقابلة .

وبعد قليل سمعت آذانُه السؤالَ نفسه مرة أخرى :

ـ ماذا يعمل أبوك يا إمره ؟

شعر إمره بضرورة الإجابة عن السؤال قائلاً :

ـ أبي غير موجود ، ثم تابع كلامه بعدما أخذ بضعة أنفاس ليقول : « لقد توفِّي » .

عجز مساعد المدير السيد أحمد عن الكلام . وفكَّر لماذا سأل هذا السؤال . واعتقد أنه كان السبب في انزعاج الطفل . ولكن لو لم يسأل لما عرف حال إمره .

ـ رحمه الله . متى توفِّي ؟

ـ عندما كنت صغيراً ، كان عمري سنتين . مرض وتوفِّي .

ـ وأمك ؟

ـ أمي تعمل في الخياطة . وأخي يعمل نجاراً .

ثم سأل بضعة أسئلة أخرى لمعرفة أحوالهم . ولأن فكرته لم تتبلور جيداً اعتقد أنه سيكون من المفيد التحدث مع عائلته .

ومسح بيده رأس إمره معتقداً أنه يحتاج إلى مثل هذا الاهتمام . كان لطيفاً جداً . كأنه امتلك بعينيه السوداوين وحواجبه السميكة قوة خفية تجذبه إليه .

ثم تذكَّر حواراً جرى بين طفل يتيم ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم . كانت القصة عن رفض أبي جهل إعطاء مال كان قد طالب به الطفل اليتيم . وكيف تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم من أجل إرجاع المال للطفل من أبي جهل عدوِّه اللدود قائلاً :

ـ هل تعرف يا إمره ؟

نظر إمره إليه قاطعاً مُزاحه مع أنس وقال :

ـ ماذا ؟

ـ النبي محمد صلى الله عليه وسلم ؟

ـ نعم ، نبينا الكريم .

ـ أحسنت ، من أخبرك به ؟

ـ أخبرتني والدتي ، وعلَّمتني أدعيةً له . أتلوها دائماً عند ذهابي لزيارة قبر والدي . لأنه حينما أدعو له يذهب إلى الجنة ويغفر الله له .

كان السيد أحمد مستمتعاً جداً بما يقوله إمره .

وفي أثناء ذلك تدخَّل أنس وقال :

ـ أنا أعرف أيضاً .

رد إمره قائلاً :

ـ لكن والدك لم يَمُتْ .

قاطع السيد أحمد الحديث قائلاً :

ـ الدعاء ليس فقط من أجل الأموات ! يجب أن نشكر الله على كل نِعَمِهِ التي وهبنا إياها ، وهو ما نفعله بالدعاء .

ثم بدأ أنس بترديد بعض الأناشيد التي يسمعها باستمرار عند سماعه لكلمات الشكر والدعاء قائلاً :

« أشكرك يا إلهي

أحبك جداً

أنت الغني ، وأنت المحب ، والمحبوب

أنت وحدك يا إلهي » .

وحينما بدأ إمره بمشاركته نظر السيد أحمد إليهما نظرات تعبِّر عن سماعه لهم بسعادة وسرور .

وعند انتهائهم سألهم :

ـ أليس جميلاً ؟ الدعاء لله وشكره على نعمه . . .

هزَّ إمره رأسه وقد أدرك ذلك . ثم تابع السيد أحمد حديثه قائلاً :

ـ لقد ذكرت نبينا الكريم ؟

ـ نعم ، ونحن نحبه جداً ؛ لأنه يحب الأطفال أيضاً .

ـ لقد صدقت . وهو كان يتيماً أيضاً ، فقد توفِّي والده قبل ولادته .

ـ هل مرض أبوه أيضاً ؟

ـ نعم . أرادوا إعطاءَه للمرضعة ، ولكن لم يقبل أحد أخذه . كان يتيماً ، وفقيراً .

ـ ولكن لدينا مال .

ـ ما أجمل ذلك ! هل تشتري لك أمك ما ترغب به ؟

ـ نعم تشتري لي ما شئت .

ـ لكن لم يكن لديهم مال .

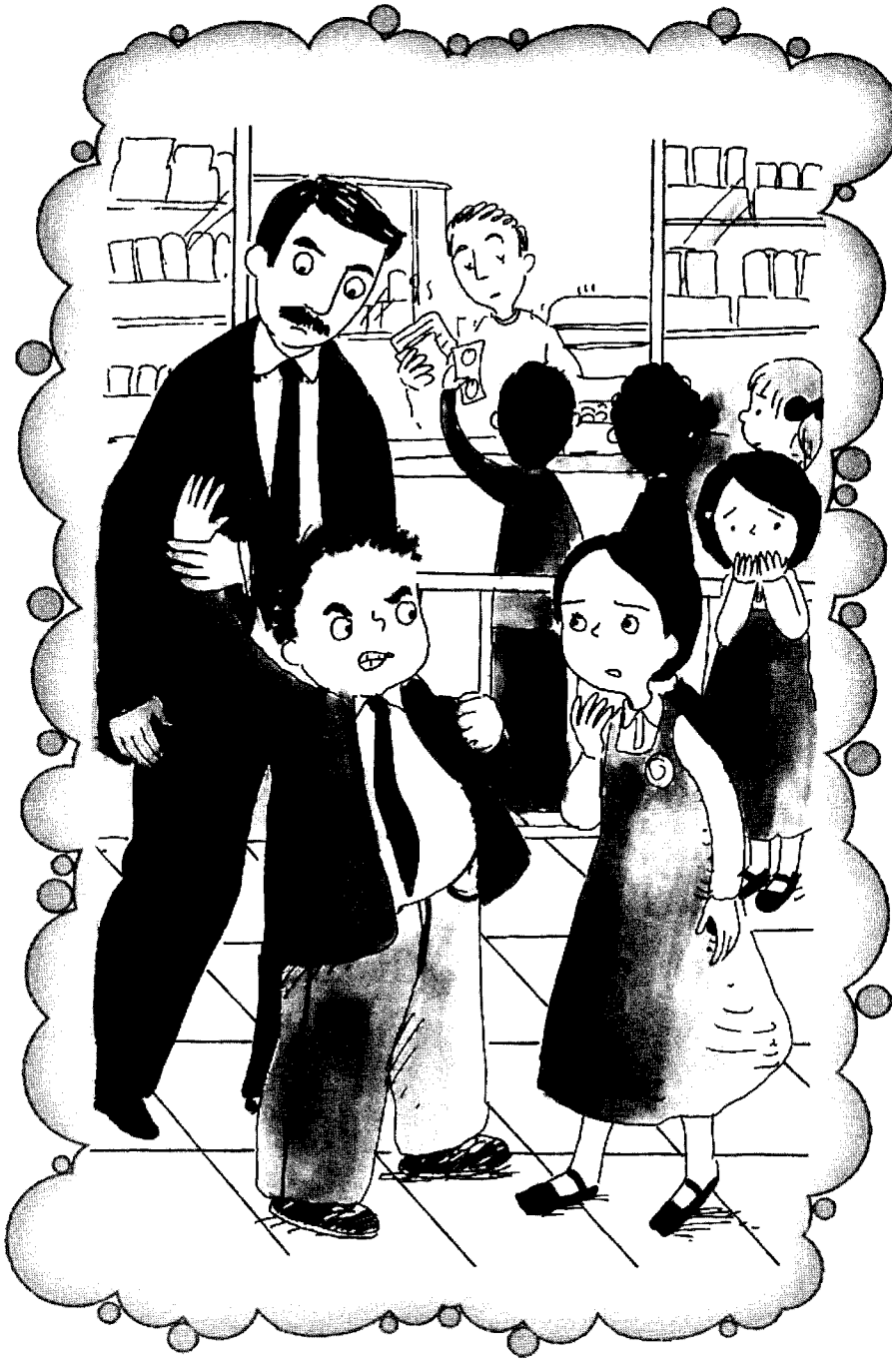

ـ ماذا جرى بعد ذلك ؟

ـ ركبت امرأة تدعى حليمة قافلة وخرجت ذاهبة إلى مكة من أجل إيجاد طفل ترضعه . كانت سَنَةً قاحلة مجدبة . ولم يتبقَّ لهم أي شيء آخر بالفعل سوى دابة مُسِنَّة . لم ترشح بقطرة حليب واحدة لعائلتها . فجاؤوا إلى مكَّة أملاً في الخلاص من ذلك الضيق .

وبسبب المسير البطيء جداً للحمار الهزيل وضعفه ، الذي ركبته أثناء الرحلة كانت آخر من وصل إلى مكَّة .

كان الأطفال ينتظرون متابعة القصة محبوسي الأنفاس . وهي فرصة اغتنمها السيد أحمد جيداً هذه المرة . وتوجَّهت إليه العيون الحزينة الراغبة في متابعة القصة . وقائل :

ـ عندما وصلت حليمة إلى مكَّة كانت جميع النساء قد ظفرن بطفل لإرضاعه ، وتوجَّهن عائدين إلى قراهن فرحين . فالتمس عبد المطلب جد النبي محمد صلى الله عليه وسلم مَنْ ترضع حفيده المحبوب ، نبينا . ولكن كلما طلب من النساء إرضاعه رفضن ذلك .

سأل إمره بأسلوب يعبِّر عن حزنه :

ـ لما لم يأخذنه ؟

ـ لقد قلتها لك قبل قليل ، لم يكن لديهم المال .

ـ نعم ! فهمت .

ـ لم يعرفوا ما ستجلبه بركةُ طفل يتيم .

ـ هل يجلب الطفل اليتيم البركة ؟

ـ بالطبع . وبينما كان جَدُّ النبي محمد صلى الله عليه وسلم يتجول في المكان يائساً التقى بحليمة الحزينة لعدم عثورها على طفل لترضعه .

ـ يا حليمة ، لدي طفل يتيم معي . لقد رفضت بقية المرضعات أخذه ، وهن يقلن : « نأمل أن ننتفع بأموال الأطفال الذين سنأخذهم معنا . ما عسى أن ينفعنا أخذ طفل يتيم » . إذن خذيه أنت . وعسى الله أن يجعل لك فيه سعادة .

قاطع أنس الحديث هذه المرة سائلاً :

ـ هل أخذته ؟

أجاب السيد أحمد :

ـ نعم أخذته . وقد جلب البركة لحليمة وزوجها . وكانوا يعرفون أنهم حظوا بهذه السعة والخير بسبب الطفل اليتيم الذي رفض الجميع أخذه ، وشكروا الله على ذلك . وهكذا مضت الأيام ، وقد فقد النبي محمد صلى الله عليه وسلم والده قبل ولادته : ثم والدته وعمره ست سنوات . وعاش يتيماً . وحينما تذكر حديث النبي « من

مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات » ، وضع يده على رأس إمره من دون إدراك منه ولاعبه ومسح رأسه . وبدا واضحاً من عيون إمره اللامعتين مدى سعادته من هذا التصرف ، وكان يرجف مثل فرخ طير يحتاج للاهتمام .

قال أنس :

ـ لماذا لا نأخذ إمره معنا عند ذهابنا إلى المقبرة . فوافق السيد أحمد على طلب أنس . وذهبوا مباشرة إلى منزل إمره . ثم اخذوه وتوجَّهوا إلى المقبرة من أجل الزيارة والدعاء لمن فارقوا الحياة . ودعوا معاً عند قبر والد إمره .

* * *

صباح العيد

كان السيد أحمد يمضي عطلة الأعياد مع والديه اللذين يعيشان في القرية . ولذلك أتوا إلى القرية مجدداً . وفي صباح العيد استيقظ جميع أفراد العائلة باكراً . وبدؤوا الاستعدادات للعيد . كان هناك أذواق ومشاعر وممارسات مختلفة خلال الأعياد .

كان السيد أحمد سعيداً فوق العادة لرؤية ابنه أنس بجواره عند التكبير من أجل صلاة العيد . وألقى التحية عليه وضمَّه إلى حضنه وشمَّه وقبَّله ولاعبه. . . كان أنس بدوره ممتناً لوجوده في حضن والده . ما أجمل الاهتمام ! كم من طفل يموت بسبب انعدام الاهتمام والرعاية ، ويفقدون أنفسهم ، ولا يجدونها بعد الآن ، ويمضون تائهين في دهاليز الحياة المظلمة .

كان اليوم عيداً والكثير منهم ما يزالون يبحثون عن أماكن ليلجؤوا إليها ويحموا أنفسهم في السراديب وتحت الجسور والشوارع لا يعلمون بقدوم العيد .

ارتدى أنس ملابس العيد بمساعدة والدته ؛ كان بنطاله الجديد

أسود ، وقميصه أبيض ، وجواربه بيضاء ، وكان نظيفاً للغاية . تفوح منه رائحة النظافة . كان حذاؤه لامعاً يلفت الأنظار . أي بدا واضحاً ، بالفعل ، من ثيابه أن اليوم مختلف . كم كان جميلاً وجود ملابس خاصة بهذا اليوم .

ثم عاد أنس إلى والده مرتدياً ملابسه وقال :

ـ إمره أيضاً لديه ملابس جديدة أليس كذلك ؟ وهو أيضاً ارتدى ملابسه .

أعجب السيد أحمد بسؤال ابنه أنس كثيراً . ومسح بيده على رأسه ولاعبه مجدداً . وتذكر أولئك الأطفال : كانوا بحاجة للملاعبة ، وأن يُحِبُّوا ، وأن يُحَبُّوا . ولكنهم وحيدون ، وأيتام ، وفقراء . كانوا في ظروف مستحيلة ، لا شيء لديهم ، ومعدمين . . .

كانت قلوبهم الصغيرة الباكية لعدم ارتدائهم ملابس جديدة في أماكن لا نعلم أسماءَها ولا تخطر على بالنا .

وتنَّهد حزيناً لوجود آباء وأمهات يبكون مع أطفالهم ، لا حيلة لهم ، موجودون بجوارنا وعن يميننا ويسارنا وبعيداً عنا .

ثم حضن ابنه أنساً حانياً ركبتيه مرة أخرى . كان حساساً ومتأثراً للغاية . وأخفى قطرات الدمع المتساقطة من عينيه . واستنشق ابنه من عنقه مرات كثيرة .

سأل أنس :

ـ هل رائحتي جميلة ؟

عاد السيد أحمد إلى رشده بهذا السؤال وأجاب :

ـ نعم ، رائحتك جميلة جداً .

ـ لقد غسلتها أمي البارحة ، قالها بتفاخر محبوب .

ثم خرجوا من المنزل ، وقد أشرقت الشمس منذ وقت طويل . كان الجميع متوجِّهون إلى الجامع .

أمسك أنس بيد والده وهو يطرح أسئلة عن العيد قائلاً :

ـ ماذا سنفعل في الجامع يا والدي ؟

ـ سنصلِّي صلاة العيد ؟

ـ هل تصلَّى فقط في الأعياد ؟

ـ نعم تصلَّى في الأعياد فقط .

ـ وماذا يفعلون أيضاً ؟

ـ يصلِّي الإمام بالناس ، ولكنه سيلقي خطبة العيد أولاً .

وسندعو الله ونذهب إلى منزلنا .

ـ ما معنى الخطبة ؟

ـ المنبر هو المكان الذي يصعد إليه الإمام ويتحدَّث . لذلك

يطلق على حديثه على المنابر اسم الخطبة . وسيخبرنا ما سنفعله في العيد .

ـ هل سنفعل ما يقوله ؟

ـ لا ، هو سيشرح لنا ما يجب فعله وما بالإمكان فعله . وسنحاول نحن تطبيق ذلك .

كان أنس يبحث في كافة الأرجاء بفضول عند دخوله إلى الجامع . كما كان سعيداً لرؤيته قدوم أطفال صغار مثله . وظنَّ نفسه قد كبر ، وأصبح كبيراً . لذلك يأتي إلى الجامع باكراً من أجل الصلاة . وبتلك الأحاسيس تابع صعود الإمام على المنبر بعيون فضولية .

واستمع بهدوء لما يقوله الإمام . حيث ألقى الإمام خطاباً مثيراً . وردَّد كلمة آمين على الدعاء الذي قيل عقب الصلاة مدركاً أنه قام بشيء مهم جداً .

ثم خرج من الجامع مع والده ، ومشوا معاً ممسكين بيد بعضهم بعضاً . وأخبره والده ما عليه فعله قائلاً :

ـ في العيد يقبِّل الصغار أيدي الكبار . وهم بدورهم يوزِّعون السكاكر على الأطفال . وأحياناً يعطون مبلغاً من المال .

لمعت عينا أنس عند اكتشافه ما يبحث عنه وقال :

ـ سيكون لدي الكثير من المال .

ـ ربما ، ولكن يجب أن لا تنتظر المال لقاء ذلك ؛ لأن هذه الأمور لا تطبق من أجل المال . عليك أن تتعلم هذا . إنها عاداتنا .

ـ ولكن في الخطبة قال الإمام : أبهجوا وأسعدوا الأطفال .

ـ هل ستبهج وتسعد أنت بالمال ؟

أراد أنس أن يقول نعم موافقاً على ذلك ، ولكنه لم يفعل .

قال والده :

ـ حسنٌ سأعطيك أنا مالاً .

وفي أثناء ذلك وصلوا إلى المنزل . حيث كانت الاستعدادات تجري من أجل طعام العيد .

قبَّل السيد أحمد يد والديه على الفور وهنَّأهم بالعيد . وكذلك فعل أنس مقبلاً أيادي الكبار وهنَّأهم بالعيد . وفرح الجميع لتهنئة أنس . وأعجبوا بكلامه مثل الكبار .

مد جَدُّه يدَه إلى جيبه على صدره وأخرج خمس ليرات أعطاها لأنس . عندها عانق أنس عنق جَدِّه بفرح وسرور . ونظر إلى والده نظرات ذات مغزى . وعبَّر بتلك النظرات عما أراده من والده .

ـ حسنٌ فهمت . وأخذ محفظته وناول أنس المال الذي أخرجه .

وبسرعة الصقر وضع أنس المال في جيبه .

كان الصوت الصادر من المطبخ يشير إلى ضرورة خروجهم من المنزل .

وحمل السيد أحمد مضطراً الطبق المليء بالطعام المطبوخ . كما تعب من نقل الطعام الذي يتناوله سكان الحي بشكل جماعي إلى الغرفة . في حين وضع أنس على الطاولة الموجودة في وسط غرفة القرية كيس السكاكر الذي بحوزته .

وفرشت الموائد على الأرض . الأطفال على موائد والشباب على أخرى . . . وبدؤوا بتناول الطعام مع بَدْءِ الكبار .

جلس أنس بجوار والده في غرفة القرية التي دخل إليها للمرة الأولى . وابتهج مع ضحكات أجداده وأعمامه الكبار . وتناولوا الطعام بمرح وسعادة . وأخيراً دعوا الله جميعاً . كان جميع سكان الحي موجودون . وفي كلا العيدين كانو يتناولون الطعام هنا . حيث يحضر الجميع أجمل الأطباق المعدَّة في منزله ، ويأكلونها سوية ، ويستمتعون معاً بجمال العيد هنا .

نهض أنس بعد الطعام ، وقبَّل أيدي الكبار فرداً فرداً . وهم أيضاً أحبوا أنس وبقية الأطفال بكلماتهم المليئة بالمحبة . وتحدثوا عن ذكريات العيد التي عاشوها في طفولتهم .

كان لدى الأطفال الخارجين من الغرفة مهمة جديدة . سيطوفون على المنازل ويجمعون السكاكر .

خرج أنس برفقة أصدقائه إلى المنازل في الحي . قبّلوا الأيادي . وجمعوا السكاكر . وأحياناً فرحوا بالأموال التي أخذوها . وقد نالوا مكاناً مهماً للغاية في حياتهم بما تعلّموه في هذا العيد . وحفرت مشاعر العيد في أذهانهم بكلمات لا تُمحى .

كم كان عيداً جميلاً !

ما أجمل العيد !

* * *

ضاع الهاتف

مضى يومان على انتهاء عطلة العيد . حزم الطلاب حقائبهم باضطراب من أجل الذهاب إلى المنزل عند رنين الجرس معلناً انتهاء الحصة الأخيرة . وفي تلك الأثناء تردَّد صوت في الصف يقول : « لقد ضاع هاتفي » ولكن لم يسمعه أحد . كان معظم الطلاب قد ذهبوا إلى منازلهم منذ وقت طويل .

ماذا ستكون ردة فعل والدتها الآن التي قالت لها : « يا ابنتي لا تأخذي الهاتف معك » عند خروجها من المنزل . ولكنها خالفت تحذيرات والدتها وأحضرت معها الهاتف إلى المدرسة . كانت تشعر بالحزن أثناء توجهها برفقة أصدقائها نحو إدارة المدرسة . شرحت ما حدث إلى مساعد المدير السيد أحمد قائلة :

ـ لقد أعطيت الهاتف لصديقتي من أجل أن ترسل رسالة إلى والدتها .

ـ ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ خرجت إلى الاستراحة . ووضعت صديقتي الهاتف تحت مقعدها . ثم ضاع بعد ذلك .

ـ ألا تعرفين أن إحضار هاتف إلى المدرسة ممنوع ؟

طأطأت الفتاة التي لم تستطع الإجابة رأسها وصمتت .

ـ اذهبي الآن إلى المنزل ، وسنخبرك إن عثرنا عليه .

توارد إلى ذهن السيد أحمد الآلاف من الأسئلة والأجوبة عندما همَّت الطالبة بالذهاب إلى المنزل مليئة بالحزن .

وبينما كان السيد أحمد مشغولاً بالتفكير ، رن الهاتف ، فأجاب قائلاً :

ـ آلو ! تفضل .

ـ لقد حاول طفلان صغيران من مدرستك بيع هاتف . حاولت التدخل بينهما ، ولكنهم وضعوا الهاتف ولاذوا بالفرار .

ـ ما حدث بعد ذلك ؟

ـ قمت بتسليم الهاتف إلى مركز الشرطة الموجودة في حديقة الحضارة .

ـ حسنٌ ، شكراً جزيلاً . هل تعرف أولئك الأطفال ؟

ـ كلا . . .

وفي اليوم التالي . . .

انتشر خبر سرقة الهاتف بين طلاب الصف . واتهمت الفتاة

وصديقتها واحداً أو اثنين من الطلاب وتعهَّدوا أنهم سيبذلون ما في وسعهم من أجل العثور على الهاتف .

استمع السيد أحمد إلى الاتهامات أولاً . ولكن لم يكن هناك أي احتمال بتورط أولئك الطلاب المتهمين بالسرقة ، ولكن أصرَّت الفتاة على اتهاماتها .

قال السيد أحمد مخاطباً الفتاة :

ـ توقفي قليلاً . من غير الصواب الكلام بأمور لا تعرفينها . فذلك خطأ وظلم وإثم .

توقف الطلاب عن اتهام بعضهم بعضاً .

ـ لقد عُثر على الهاتف . اذهبي مع والدتك إلى مركز الشرطة في حديقة الحضارة وتسلّميه .

تسمَّرت الفتاة في مكانها .

ـ إن أصدقاءَك الذين اتهمتهم يبكون الآن بحسرة . هل لديك الحق في هذا ؟ إن ديننا يأمرنا أن نبتعد عن سوء الظن . ويأمرنا أن لا نتكلم بمواضيع لا علمَ لنا بها .

خجلت الفتاة وقالت :

ـ أنا آسفة للغاية .

ـ ليس عليك الاعتذار مني ، بل عليك الاعتذار من أصدقائك

وأمام الجميع . وإلا فإنك ظلمتهم .

أصرَّ السيد أحمد على معرفة من حاول بيع الهاتف . يجب عليهم أن يدركوا الخطأ الذي قاموا به .

اتَّصل بالشخص الذي قام بالإبلاغ عن الهاتف . وأخبره السيد أحمد بأهمية قدومه إلى المدرسة . وأفاد أيضاً بأن توعية الأطفال في هذا العمر سينقذهم من هذه الأفعال الخاطئة .

عبَّر الرجل عن امتنانه .

وبينما كان السيد أحمد ينتظر قدوم الرجل ، ازداد فضوله لمعرفة ما ستفعله الطالبة في الصف . ثم ذهب مسرعاً إلى الصف فوجد الباب مفتوحاً . وطلبت الفتاة الإذن من المعلِّمة من أجل الكلام ، ثم وقفت وقالت :

ـ إنني أعتذر أمام الجميع من صديقي عدنان . لقد قمت بخطأ كبير . كان من المفترض أن لا أتكلم في موضوع لم أكن أعرفه على وجه اليقين . لقد علمت من السيد أحمد بأنني تسرعت في الاتهام . لقد سألت نفسي عما كنت سأفعل ، إن قام شخص ما باتِّهامي . إنني آسفة جداً . أطلب منه أن يسامحني أمام الجميع .

قام عدنان وعيناه ممتلئتان بالدموع . وعندما رأى توجُّه الأعين نحوه قال :

ـ حسنٌ ، لقد سامحتكِ .

صفَّق طلاب الصف من أجل عدنان ، لإظهاره جمال العفو والمغفرة معبِّراً عن عظمته .

لقد كان هذا الحدث درساً جيداً من أجل الطلاب . إن الإصرار على التكلم بأمور نجهلها قد يجرح قلب الأشخاص ، وقد يكون سبباً لوقعوهم في حزن عميق . إن أكبر حزن هو الاتهام بالسرقة في نظر الجميع .

عندما جاء الرجل إلى المدرسة نظر أولاً إلى صور طلاب ذلك الصف . وقال : إنه تعرف على طالبين منهم . كانا طفلين صغيرين في الصف . لم يكونا من النوع الشقي . كما لم يكونا مهتمَّيْن بالدراسة أيضاً . يُحضران الكتب والدفاتر رغماً عنهما .

شكر السيد أحمد الرجل وودَّعه بوجهٍ بشوش . ثم دخل إلى الصف فوراً وقال :

ـ أيها الأطفال ! من شارك في سرقة الهاتف أمس فليأت معي الآن . وإلا سأواصل متابعة الموضوع حتى يتَّضح كل شيء . ولن أترك هذا الأمر حتى أجد الحل . سأذهب إلى مكتبي الآن . وسأنتظر من شارك في السرقة .

وبعد فترة وجيزة دخل إلى المكتب طفلان . كانا الطفلين

اللذين تعرف عليهم الرجل في الصور .

قال السيد أحمد لهما :

ـ اشرحوا لي فقط ما جرى .

شرح الأطفال له الحادثة كاملة .

ـ إن فعلتكم تلك تعتبر سرقة ، أتعرفون ذلك ؟ وتعرفون عقوبتها .

واستمرَّ السيد أحمد بمراقبة الطفلين حينما بدؤوا باتهام بعضهم بعضاً .

ـ انظروا ما فعلته السرقة بكم الآن . لقد بدأت الشجارات بينكم .

ـ . . .

ـ إن فعلتكم تلك ستقلِّل من قيمتكم أمام أصدقائكم ، وستمنع الناس من الثقة بكم . إن هذا ذنب لا يغفر . ذنب كبير . اعتبره ديننا من أكبر الخطايا . إنه فعلتكم تلك لا تغتفر . سوف أستدعي أولياء أموركم وأخبرهم بالأمر .

بدأ الطالبان بالتوسل :

ـ أرجوك لا تخبر أولياء أمورنا .

وتعهَّدوا بعدم تكرار ذلك . لن يسرقوا مرة أخرى وسيكونون أناساً صالحين. . .

قام السيد أحمد باستدعاء أولياء أمور الطالبين . وتكلَّم معهم طويلاً عن السرقة التي قاموا بها . واتفقوا على تشديد الرقابة على الأطفال منذ الآن . والعمل على جعلهم أناساً مفيدين للمجتمع . ومع تراجع الطالبين عن أفعالهما السابقة نهائياً شعرا بوجودهما بالصف على نحو أكبر عبر مشاركتهما بالدروس وزيادة اهتمامهما بها .

* * *

طالب فوضوي

كان بصري طالباً كثير الحركة . لا يستطيع الثبات في مكانه ، وعصبياً ، وفوضوياً ، وأشعثَ ، لا يدرس ولا يولي أي اهتمام بالتحذيرات التي تدعوه إلى ذلك . وأحياناً كان لا يحضر دفتره وفي أحيان أخرى لا يجد كتابه .

وكان دائماً يتحجج بأعذار واهية عند تفتيش المعلِّمة واجباته المنزلية . وكانت المعلِّمة تغضب منه أحياناً أو توجِّه له النصائح في أحيان أخرى .

إضافة إلى أن انعدام التنسيق والترتيب في دفاتره يشير إلى إهمال والديه له . فقد كان يخربش على الصور الغريبة في كتبه بالرسم عليها . وحواف الكتب كانت مجعدة جداً . حتى أصبحت شديدة السواد .

وخصوصاً أن شغبه في الصف أصبح لا يطاق ، وكان أصدقاؤه يفضلون البقاء بعيداً عنه . وحتى خلال الدرس كان مزعجاً . تارة يأخذ قلم صديقه ويرميه ، وتارة أخرى يسحب دفتره بقوة ، أو يضربه بمرفقه . . .

قابلت المعلِّمة والد بصري ووالدته من أجل تحسين سلوكه . ولكن لم يطرأ أي تغيير عليه .

ولهذا قررت المعلِّمة اتباع أسلوب مختلف في التعامل معه .

حيث أعربت عن إعجابها الشديد ببعض كتاباته أثناء تفتيشها للواجبات المنزلية المطلوبة . وكتبت ملاحظة على دفتره أثنت بها عليه .

لم يشعر بصري بمثل هذه السعادة في حياته من قبل . كما لم يكن بمقدوره إيجاد الكلمات المناسبة لوصف تلك السعادة . كانت تملؤه كذلك البهجة والسرور . فقد اعتبر الثناء الذي كتبته المعلِّمة على دفتره بمثابة حصوله على جائزة دولية . كذلك شعر كأن ميدالية علقت على صدره . ويكاد ينفجر من شدة الحماس .

وحينما صعد إلى السبورة وجِّهت إليه التهاني . ومنذ ذلك الحين بدأ بصري بالاهتمام بنفسه بشكل أكبر . كما أولى واجباته المنزلية عناية كبيرة ، وقلَّل من إزعاج أصدقائه ومضايقتهم . إلى جانب انضمامه إليهم واللعب معهم كل ذلك ساهم في تغيُّر بصري بالكامل .

في حين وضعت المعلِّمة مجموعة من الخطط بعدما أدركت مدى إعجاب وسعادة بصري بالثناء والإطراء الذي حظي به .

والهدف من ذلك كله هو زيارة اهتمام بصري بدروسه .

وبفرحة كبيرة عرض بصري على أصدقائه الثناء الذي كتبته المعلِّمة على دفتره . ولم يكتف بذلك ، حيث عرضها على والديه مرات كثيرة عند عودته إلى المنزل . وكذلك جيرانه بمن فيهم الخالة آتين . . .

صرخ قائلاً : « لا أصدق لقد قالت لي معلِّمتي : أحسنت » .

ومن الآن فصاعداً كان بصري يتصرف بحذر أكبر . ويستمع للدرس بهدوء من دون شغب . وابتعد عن التصرفات السخيفة والتافهة .

بينما كانت المعلِّمة تتجاهل الأخطاء التي يرتكبها بين الحين والآخر وتعطي الأولوية وتثني دائماً على سلوكه الإيجابي . ولكي لا تكون القيمة والاحترام المعطى له بلا مقابل تابع بصري الدراسة والاجتهاد .

دمدمت المعلِّمة التي وهبت الحياة لطفل عبر إشادة صغيرة كانت في مكانها المناسب قائلة :

« كلمة ثناء واحدة هي كنز عظيم تعطي وتعطي بلا نهاية » .

* * *

يلماز طالب عجيب

كان أحد الطلاب يجذب انتباه الجميع إليه بملابسه الممزَّقة تماماً وأنفه الذي يشبه درنة البطاطس . كانت عيناه الكبيرتان تعلوهما الرموش كأنها سهم مستعد للانطلاق تخيف الناظرين إليها . علاوةً على ذلك كان شعره يشبه القنفذ . . . وقصيراً جداً مقارنةً بوزنه .

كلما رأى طالباً ضعيفاً ؛ يضايقه ويسخر منه . حتى عندما يأتي جعفر الصغير بعكازيه كان يضحك ، ثم يقول له ألفاظاً غير ملائمة ويضحك مرة أخرى . سبق ونبه المعلِّمون يلماز مرات كثيرة . لكنه لم يعبأ بتلك التنبيهات على الإطلاق ، واستمرَّ بأفعاله .

وتابع تمرُّده ، لا يهمه ما يقوله الآخرون . حتى تعب المعلِّم منه . لكن ما فعله تجاه إيرجان ذي الشعر الخفيف ، والوجه والعينين الصغيرتين ، والمنتظر بهدوء من غير أي صوت كان القشة التي قصمت ظهر البعير . ودعا المعلم الله أن يلهمه الصبر حينما ضحك يلماز مجدداً على تحذيراته .

كان السبب في الشغب الموجود في الصف .

في بعض الأحيان كان يغرز الإبر في أيدي أصدقائه . وكان يسعد عندما يرى بكاءَهم ويسمع أنينهم . كما كان يمسك أصدقاءَه كأنه تم اختطافهم . ويزحف على الأرض ويجلس فوق الأوساخ والقاذورات . وسرعان ما تصبح ملابسه سوداء . ويجرح ركبتيه بسبب زحفه على الأرض . كما كان يبدِّل حقائب أصدقائه ، ويرمي دفاترهم وأقلامهم على الأرض . إلى جانب سخريته من انتحاب أصدقائه وشكواهم ، ويخيفهم بتعابير وجهه طالباً لهم أن لا يبكوا مثل الأطفال .

في يوم من الأيام قام بكسر زجاج خزانة الصف ، ورغم تحذيرات المعلم لم يدفع المال مقابل تصليحها . وحينما استدعى المعلم والده إلى المدرسة ، غضب أيضاً ، وصرخ مغادراً المدرسة . أما والدته فقد كانت تأتي إلى المدرسة من حين لآخر خجلة جداً ، ثم تغادر المدرسة وهي تبكي ممّا يفعله ابنها من أفعال سيئة .

وعقب سخريته من إيرجان ذي الشعر القصير لم يستجب لتحذيرات الطالب شادي ، وشتمه وتشاجر معه .

سَئِمَ جميع الطلاب منه . وأصبح الدعاء أول عمل يقومون به كل صباح عند دخولهم المدرسة من أجل أن لا يصطدموا معه .

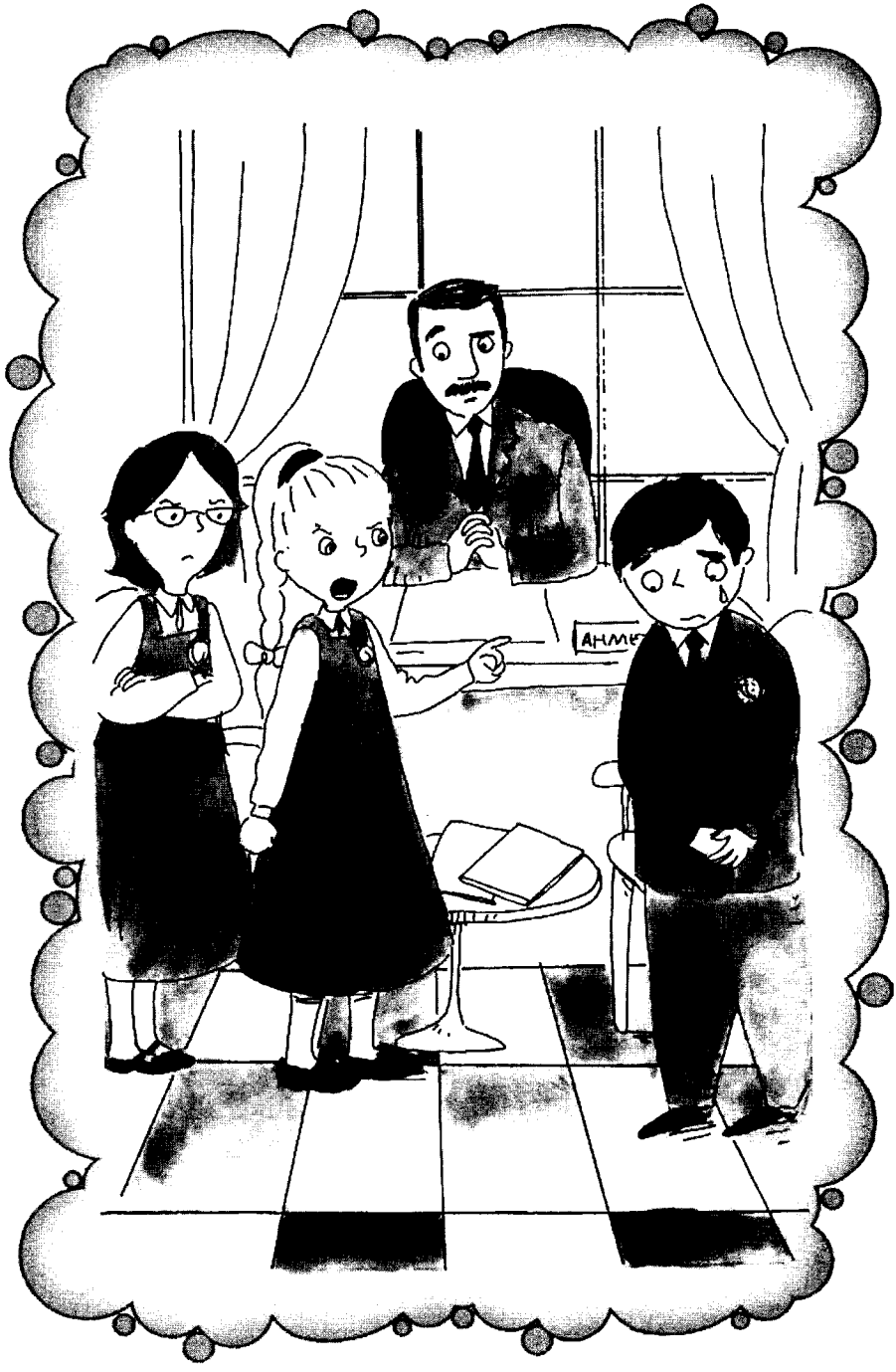

ويسألون الله أن يحميهم من الأذى . حتى أصبحت هذه الحالة ، إحدى التصرفات التي لا غنى عنها .

كان المعلِّم يكلِّمه بطريقة حادة تارة ولطيفة تارة أخرى بعد أن يقوم الطلاب بالشكوى منه ، ولكنه لم يبالِ بهذا الكلام وتابع التصرف كما يحلو له .

في يوم من الأيام كان الجميع في انتظار حدوث شيءٍ ما لم يكن في الحسبان .

يوصف بالرهيب . نعم رهيب . .

في ذلك اليوم قام يلماز بكافة تصرفاته الشقيَّة وتجاوزها بفعل ما هو أعظم . حيث قام بإزالة اللوح من مكانه ووضعه إلى جانب الصف . وبينما كان طلاب الصف يراقبون بخوف أفعال يلماز دخل المعلِّم إلى الصف .

عندها سُمع صوت غريب وأصبح الصف مليء بالغبار .

خاف المعلم . وبدأ الطلاب بالصراخ بصوت عالٍ جداً . حتى سمعت تلك الضوضاء في جميع أرجاء المدرسة . وبدأ بعض الفتيان والفتيات بالبكاء .

نظر المعلِّم إلى الجانب المليء بالغبار . كان يلماز يقف هنالك ، كأنه لم يفعل شيئاً .

من المستحيل أن يفعل ذلك أحد غيره . توجَّه المعلِّم إلى جانبه طالباً منه أن يخرج من الصف فوراً . ردَّ يلماز بأسلوب متعنت :

ـ لن أخرج .

كرر المعلِّم طلبه بغضب قائلاً :

ـ قلت لك أن تخرج . .

ـ لن أخرج ، وافعل ما تريد . . .

لم يستطع المعلم تحمل تصرفات يلماز الوقحة . فأمسكه من ذراعه وأخرجه من الصف . انتظر الطلاب نتيجة ما حصل .

ثم أحضر المعلِّم يلمازَ إلى مدير المدرسة .

انتفخت العروق في وجه المعلِّم وهو يصرخ قائلاً أنه طوال مسيرته التعليمية لم ير شيئاً كالذي رآه منذ قليل . وأخذ يكلِّم نفسه واقفاً في الصف كأنه لا يوجد أحد غيره .

كان مصدر الصوت والدخان هو انفجار إحدى المفرقعات التي يلعب بها الأطفال خلال الأعياد والموجودة في إحدى الزوايا الحديدية للمقعد .

لم يعد يلماز إلى الصف مرة أخرى .

شكر الأطفالُ اللهَ على استجابته لدعائهم .

* * *

توزيع الميداليات

في ذلك اليوم ، كان من الواضح أن المدير سيلقي خطاباً مهمَّاً جداً ؛ لأنه كان ينتظر اصطفاف الطلاب وهو يحمل مكبِّر الصوت في يده . كان جميع الطلاب مصطفين في أماكنهم المحددة في ساحة المدرسة ، وفي مقدمتهم معلِّموهم جاهزين للاستماع إلى الخطاب .

انتظر المدير قليلاً حتى صمت الطلاب . وحينما بدأت الضوضاء بالانخفاض قام بتحذيرهم مستخدماً مكبِّر الصوت الذي بيده :

ـ أصدقائي الأعزاء ! من فضلكم اصمتوا .

انتقل الطلاب من حالة الضجيج إلى حالة الهدوء على الفور . كان غضب المدير مسألة وقت بعدما وجَّه ذلك التحذير . وهو أمر يعلمه الطلاب جيداً .

قام المعلِّمون بالانتباه إلى الطلاب بشكل مكثَّف بعد ذلك التحذير .

ثم بدأ المدير الخطاب قائلاً :

ـ اسمعوني جيداً ! لقد اقتربت الامتحانات ، ادرسوا جيداً ، ولا تنسوا أداء واجباتكم في الوقت المحدد .

ومع اقتراب الخطاب من النهاية تابع المدير خطابه مع التحذير مجدَّداً :

ـ لقد اجتمعنا هنا لنقدِّر جهود بعض أصدقائكم . لقد نجح هؤلاء في القيام بأفعال عظيمة بأياديهم الصغيرة .

كان جميع الطلاب فضوليين وحذرين .

تابع المدير كلامه قائلاً :

ـ إنني أبارك لهم . ما أشجع هؤلاء الأطفال . لقد فعلوا بكامل قوَّتهم ما عجز الآخرون عن فعله . واعتنوا بمواضيع حساسة لا أحد يهتم بها . أريدكم أن تصفِّقوا لهم .

شارك جميع الطلاب في طوفان التصفيق .

في حين تابع المدير خطابه قائلاً :

ـ سأقوم بقراءة أسمائهم الآن .

ثم قام بتعداد الأسماء . . . .

أنس ، بشرى ، كوثر ، إمره . . .

خرج الطلاب الذين قُرئتْ أسماؤُهم إلى المنصَّة وسط تصفيق جميع الطلب . لقد كان الحماس واضحاً على وجوههم . كما ارتعشت أقدام البعض . وظن بعضهم الآخر أنه سيتوقَّف عن التنفس . في حين جفَّت أفواه البعض وتوقَّفوا عن البلع .

ثم قال المدير وهو يشير بيده :

إنَّ أصدقاءَكم هؤلاء قد تصرفوا بمسؤولية كبيرة دون أي شعور بالتكبُّر وجمعوا القمامة الموجودة في الحديقة مرات كثيرة وقاموا برميها في سلة المهملات . وفي بعض الأحيان كنت أراقبهم من النافذة متعجِّباً لأمرهم .

حتى أنني قمت بالانضمام إليهم أحياناً . ثم نخرج ونجمع القمامة . إنني أتكلَّم عن أكياس الطعام الفارغة التي ترمونها دون اكتراث .

ـ مهما شكرناهم فلن نوفيهم حقَّهم . هكذا يكون الاهتمام والحساسية للمواضيع المهمة . وسأقوم بتكريمهم وتقليدهم بالميداليات .

عندما سمع الطلاب عن الميداليات ، بدؤوا بالنظر إليها بإعجاب . ومنهم من أراد أن يقلَّد بمثل هذه الميداليات . وتنهَّد الطالب الهادىء الذي تمنَّى أن يكون مكانهم .

قام المدير بتوزيع الميداليات على الطلاب العشرة وسط تصفيق الجميع .

وأخذ المدير مكبِّر الصوت ، وقال الجمل الأخيرة من الخطاب :

ـ حصلت مدرستنا على « العَلَم الأبيض » بفضل حساسية واهتمام هؤلاء الطلاب . إنَّ مدرستنا تمتلك علماً أبيضَ . وأكرِّر الشكر لأصدقائكم الذين كانوا مهتمِّين بنظافة المدرسة ، وأدعوكم للاهتمام بحماية البيئة والحفاظ على نظافتها . . .

ترك المدير مكبِّر الصوت بينما استمر الطلاب بالتصفيق . في حين عاد الطلاب المكرَّمين سعداء إلى جانب أصدقائهم .

وبينما تابع أصدقاؤهم مباركتهم قام بعضهم بفحص الميداليات ، وبعضهم ممّن ارتداها مشاركينها مع أصدقائهم . . .

ومنذ ذلك اليوم . . .

بدأ الطلاب بالاعتناء أكثر بنظافة البيئة .

والتقطوا القمامة من الأرض ورموها في سلة المهملات . كما كانوا فخورين بحصول مدرستهم على العَلَم الأبيض الذي يُعطى للمدارس النظيفة . لهذا تعاملوا بشكل يليق بمدرسة حاصلة على علم أبيض .

* * *

الفتاة العمياء

كان في المدرسة طالبة صغيرة . لطيفة ومُحبَّة . لن تعرف أنها مضحكة جداً إلا عندما تتكلَّم معها . تلفت الأنظار إليها بنظاراتها الكبيرة المؤطرة . علاوةً على ذلك ، كانت عدسات النظارات بنيَّة اللون . حتى إنْ أردت رؤية عيونها لن تستطيع . ولعدم معرفة غالبية المعلِّمين في المدرسة لمشكلتها كانوا يستخدمون جُملاً قاسية معها .

في بعض الأحيان كان يُسمع في وقت الاستراحة تحذير المعلِّمين المناوبين لها بصوتٍ غاضب : « لماذا لا يوجد أمامك كتاب في فترة القراءة » يقولون هذه الجملة كأن أحد الإداريين غاضب .

كان أغلب أصدقائها يتصرَّفون معها باحترام ، ويبتعدون عن التصرفات التي من الممكن أن تُحزنها . ومنهم من كان يتعمَّد جرحها .

عندما قابلها مساعد المدير السيد أحمد للمرة الأولى ، لم يكن يعرف أنها عمياء .

فقال لها بطريقة تحذيرية قاصداً التعرُّف عليها :

ـ لماذا لا تخرجين في فترة الاستراحة ؟

كانت تتكلَّم بأسلوب لطيف جداً . وكانت لطافتها تبدو من صوتها .

ـ إني لا أخرج في الاستراحة يا أستاذ .

ـ لماذا ؟

ـ يجب أن يكون بجانبي أحد . ولا أرغب في الخروج بشكل عام .

استمرَّ السيد أحمد المُنصت إليها من دون أن يتكلَّم . لقد أدرك على الفور أهمية ما ستقوم بشرحه .

ـ إنني عمياء .

تسمَّر السيد أحمد في مكانه كأنه أصيب بالشلل . وخطر على ذهنه المئات من الأسئلة . ثم صمت وجلس بجانب الطالبة ، وقال لها :

ـ هل أنت كذلك منذ الولادة ؟

ـ كلا . لقد حدث بعد ذلك ببطء .

ـ من الممكن أن أخرج معك في الاستراحة .

ـ شكراً ، لكن لا أريد أن أكون عبئاً عليك . لديك الكثير من العمل .

ـ لا يوجد لدي أيَّ عمل . سأخرج معك .

ثم خرجا معاً إلى الساحة . كان الطلاب ينظرون إليهما وهما يسيران معاً طيلة مدة الاستراحة . شرحت له جميع المصاعب التي تواجهها . قالت له : إن أمها تحضرها إلى المدرسة كل يوم . وقد رأى السيد أحمد قُدُومَ والدتها معها من قبل ، ولكنه لم يدرك أنها لا تستطيع الرؤية .

وفي اليوم التالي ، انتظر السيد أحمد قدوم الطلاب . ثم جاءت الفتاة العمياء برفقة والدتها . عندما أدخلت الأم ابنتها إلى الصف وخرجت مجدَّداً إلى الساحة دعاها السيد أحمد قائلاً :

ـ أيتها السيدة ! هل يمكنك الانتظار قليلاً ؟

توقَّفت المرأة وانتظرت . توجَّه السيد أحمد إلى جانب السيدة ، وقال :

ـ أشعر بالفضول لمعرفة المزيد عن ابنتك .

ـ هل تقصد إحساناً ؟

ـ نعم . إنها لطيفة جداً ، حفظها الله .

ـ جميعاً ، إن شاء الله .

ـ ما هو وضع إحسان ؟

ـ وضعها ليس جيداً . إننا نذهب إلى أنقرة منذ سنين من أجل المعالجة . يزداد فقدانها البصر كل يوم . إنها ترى بشكل ضعيف جداً الآن . ولا تستخدم العدسات الكبيرة التي أعطاها إياها الطبيب . لقد أصبحت عينيها وأذنيها .

ـ إن ابنتك ذكية جداً . لقد رأيت دروسها وعلاماتها . إنها متفوِّقة .

ـ نعم إنها تستمع وأنا أقرأ . إنني أدرس معها من جديد. . . .

ـ كان الله في عونكم . وسيكون ثوابكم عظيماً بالتأكيد. . . في الجنة . هل من الممكن أن نساعدك بشيء ، ماذا بإمكاننا فعله من أجل طفلتنا ؟

عدَّدت الأمور التي بوسعها فعلها بنفسها . ثم تمنَّت بعضاً منها من أجل إحسان . أكد لها السيد أحمد أنه سيقوم بجميع تلك الأمور ، وأنه سيتابعها بنفسه . فرحت والدة إحسان بذلك كثيراً . كما أكَّد لها السيد أحمد وهي تغادر المدرسة قائلاً :

ـ سأهتم بإحسان من الآن فصاعداً .

شكرتْه السيدة جزيل الشكر ، وقالت :

ـ لقد قبلت بواقع الأمر بالفعل . لم تعد تهتم بهذا الأمر . كما

أنها تؤمن بفكرة أن هذا الأمر هو خير لها . إنها شديدة الإيمان بالله . ويشغلني أحياناً طلبها سماع المزيد من الكتب ، ولكن لم يَعُدْ أحد من العائلة يشتكي من هذا الأمر . . .

ربما لم تختلط الأفكار لدى السيد أحمد ، ولكن راجع نفسه مرات عدَّة . وتساءَل طويلاً كيف ستصبح حياته إن أصبح أعمى . حزنت والدة إحسان كثيراً عندما علمت بقيام بعض الطلاب بالسخرية من وضعها . كان من المحتمل أن يتكلَّم مع الأطفال حول هذا الموضوع . يجب عليهم معرفة قيمة نعمة النظر . . .

وبعد أيام قليلة . . .

لم تأت إحسان إلى المدرسة . استغل السيد أحمد تلك الفرصة ودخل إلى صفِّها . شعر الطلاب بالخوف عند دخول أحد الإداريين إلى صفِّهم . وظنوا أن لديه شكوى عن الصف . لم يتحرك أحد من مكانه . وبدؤوا بالاستماع إلى السبب التي جعل السيد أحمد يأتي إلى الصف . وبعد أن سأل السيد أحمد عن أحوالهم بدأ حديثه قائلاً :

ـ اسمعوا جيداً .

ازداد الصمت في الصفِّ بينما تابع السيد أحمد كلامه قائلاً :

ـ لنتخيل قليلاً أنكم في مغارة عميقة تشبه عمق بناء مؤلف من

سبعة طوابق. . . وقمتم بإطفاء الفانوس الذي بيدكم وبقيتم هكذا. . . لا يوجد أي صوت أو ضوء . يوجد حولكم فقط الصمت. . .

ماذا كنتم ستفعلون ؟

لنتخيل أن حياتكم تمضي هكذا ؛ عندها سيتغيَّر مفهوم الحياة كثيراً بالنسبة إليكم. . .

تخيَّلوا أنكم لن تروا أي شيء !

تخيَّلوا أن تبتعدوا عن الجمال التي يعطيكم إياه الضوء والظلام .

لن تهتموا إنْ كان الزمان صباحاً أو مساءً. . .

تخيَّلوا أنكم لن تروا النجوم اللامعة في سماء الليل أو القمر المضيء. . .

تخيَّلوا أنكم لن تروا المطر ، والثلج ، والغيوم أو الماء. . .

اغمضوا أعينكم وتخيَّلوا أن يستمرَّ هذا الظلام دائماً. . .

سيتفجر الرعب بداخلكم فوراً . وستشعرون بالجنون . وستكونون على قناعة أنكم لن تستطيعوا العيش هكذا. . . وستصرخون. .

إحسان. . .

يا لها من طفلة جميلة !

لقد علمت أن بعض الطلاب يقومون بالسخرية منها على الرغم من كونها مجتهدة وذكية . لقد حزنت كثيراً . إن مثل هذا التصرف لا يليق بكم أبداً .

في أثناء ذلك التفت بعض الطلاب في الصف ، ونظروا إلى وجوه طلاب آخرين .

وعرف السيد أحمد فوراً من قام بالسخرية من إحسان . ولم يقل لهم أي شيء سوى ضرورة الابتعاد عن تلك الأمور . واستمرَّ بالكلام :

ـ يجب عليكم معرفة ما تعاني منه إحسان الناعمة ذات الكلام الجميل . بعد قيامها بالكثير من العمليات ما زالت تواجه الكثير من المتاعب . في النهاية تقبَّلت وضعها وتؤمن أن ذلك قدرها .

فكروا دائماً بأنكم تستطيعون الذهاب إلى المكان الذي تريدون ، وأن تفعلوا ما تشاؤون ، ولا تنسوا أن إحسان ليست قادرة على فعل ذلك . إن مهمتكم هي أن تتعاملوا معها باحترام ، وأن تساعدوها في جميع الأمور ، وأن تكونوا بجانبها وأن تدعموها . كيف من الممكن أن تكونوا أعداءً لها وأنتم تمتلكون شيئاً قيِّماً جداً تفتقده هي ؟ كيف من الممكن أن تحزنوها ؟ كيف من الممكن أن

تفعلوا ذلك وهي تعاني أكثر منكم ؟

صمت السيد أحمد . ولم يصدر أي رد فعلٍ من الصف . كأنه خيَّم صمت الموت عليه .

ـ ولا تنسوا أخيراً أن لا أحد بوسعه أن يضمن لكم أنكم لن تتعرضوا لمثل هذا المرض لا سمح الله .

خرج السيد أحمد من الصف . ورغم دخول المعلِّم ظل الصمت ما يزال يخيِّم عليه .

وأدرك الجميع نعمة البصر التي أعطانا الله إياها . وحفرت في أذهانهم ضرورة المساعدة والتصرف بشكل جيد تجاه الناس الذين يعانون من هذا المرض بكلمات لا تُمحى .

* * *

ليست مُعاقة

كانت والدتها تعتني بها جداً بسبب تلقِّيها للعلاج . كانت بجانبها في كل خُطوة وكل نفس مهما جرى . أصبحت هي محور حياتها . ولم تمرَّ دقيقة واحدة من دون أن تتذكرها . لقد أصبحت ابنتها الوحيدة ألماس حياتها وعالمها كلها منذ ولادتها . وفجأة كبرت أحلامها ، وأصبحت أسعد إنسانة وأجمل أم . كانت أشبه بطائر العنقاء ، الذي لم يكن ملوناً هكذا من قبل . كما لم يكن ريشه رقيقاً أو مبهجاً يوماً إلى هذا الحد . لقد حصل ذلك مع ولادة ألماس ، لقد بلغ حبها لها ذروته .

وعندما كانت بعمر السنتين كان الجميع ينظر إليها قائلاً :

ـ ما أجملها . حفظها الله من الحسد .

يقولون ذلك ويتعوَّذون وينفثون بشكل عشوائي يمنةً ويسرةً ، فقط كانت عيونها العسلية الساحرة وشعرها الأشقر المجعد وكلامها الأنيق الجذاب يلفت انتباه الجميع .

لقد أسمتها ألماساً ؛ لأنها ثمينة ولا مثيل لها . إنها تشبه كل

صفات الألماس . كانت تلفت انتباه الجميع بجمالها. . . ولا سيما أن مشيتها كالبطة الخاصة بها كانت ثمناً لكل شيء فعلياً .

كان نجاح ألماس في المستقبل يزيِّن أحلامها . لأن كل شي يليق بها ، كما أنها تستحق كل شيء. . .

وفي يومٍ من الأيام. . .

جرى أمر حطَّم جميع أحلامها مثل الزلزال . وأصبحت جميع الخطط التي تفكِّر بها حطاماً . ودُفن طائر العنقاء ذو الجمال الفريد من نوعه تحت الأنقاض . ولم تعلم ما عليها فعله . كأن الشمس غابت في منتصف النهار ، وتركت السماء للظلام الذي انتشر في كل شيء : أفكارها ، وخيالها ، وخططها ومستقبلها. . .

صرخت متألِّمة ، يا إلهي لماذا حصل هذا ! يا ليتني مت ولم أر ذلك . كانت تصرفاتها تشبه أنينها . كأنها بقيتْ وحيدة في هذا العالم ولا تستطيع أن تجد حلاً . وكان العجز يستملكها . ثم جاء زوجها إلى البيت مسرعاً بعدما حصل على إذن من العمل . وارتعش عندما رأى ذلك المشهد أمامه . تجمَّد دمه . وتوقف كأنه تمثال أمام ما حصل لابنته الوحيدة . كانت مثل قطة بريئة صامتة ويائسة . تغطت بشرتها باللون الأصفر . وعندما تفتح عيناها أحياناً تشعرك نظراتها الشاردة والمتعبة كأن رمحاً اخترق قلبك . لقد علم تماماً

معنى العجز . وارتجفت شفتاه . كان يتوسل ويطلب المساعدة بطريقته الخاصة .

ـ قال لها : يا ألماستي ، آخذاً إياها في حضنه . وحينما خرج من المنزل بخطوات سريعة لم يترك وراءَه سوى الفوضى . واستحوذ الارتباك عليه بالكامل . حتى أنه لم يتذكر من أين وكيف مشى في طريقه . وعندما سمع ما قاله الطبيب عاد إلى رشده قليلاً ، وابتسم لابنته .

قال الطبيب :

ـ من المحتمل أنه قد أصابها الصرع .

تنفَّس الأب قليلاً .

في حين تابع الطبيب كلامه قائلاً :

ـ ليس مميتاً . من الممكن معالجته . كما يوجد الآلاف من الأشخاص المصابين بذلك ويعيشون حياتهم بشكل طبيعي . . .

خاف الأم والأب كثيراً من تعرُّض ابنتهم للإغماء .

في البداية لم يعتادوا على ذلك . وبدأت الفتاة في المشي مرة أخرى . ما ألطفها وأجملها . . .

أما الآن ، فقد كبرت وأصبحت طالبة في المدرسة الإعدادية .

كانت صيحات الأم التي كرَّست نفسها لابنتها منذ ذلك اليوم قوية في آذان السيد أحمد :

- إنني أعيش من أجل ابنتي . إنني لم أجلب لها الأذى يوماً . . إنها ليستْ مُعاقةً . . .

نظر السيد أحمد إلى المرأة التي وقفت أمامه ووجهها الذي احمرَّ من الغضب محاولاً فَهْمَ ما جرى .

ثم بقي هادئاً لفترة من الوقت .

استمرَّت المرأة بشرح ما حدث . ووقفت هناك تتكلم عن أن بعض طلاب الصف سخروا من ابنتها .

- إنني لا أسمح بحدوث شيء كهذا أبداً . قالت ذلك والدموع تتدفَّق من عينيها . لم تكن في وضع مناسب لِأَنْ تسمع الجواب . ثم طلب السيد أحمد كأس شاي من أجل المرأة الغاضبة التي لم تعلم ما عليها فعله ، وقال لها :

- أنا أفهمك . لا تزعجي نفسك ، سأتكلَّم مع طلاب الصف .

لم تنصت المرأة لكلام السيد أحمد أبداً . كانت في حالة من التوتُّر . منعتها من سماع شيء آخر سوى أفكارها .

عدَّدت ما يجب عليه فعله آلاف المرات . واضطرت للاستماع

إلى السيد أحمد متحلِّية ببعض الصبر . إن الصبر هو جزء من الحل . . . .

في النهاية ، تمكن من إقناع المرأة . وأراد معرفة مَنْ كان يقوم بالسخرية من ألماس . خرجت المرأة من المكتب ونادت لألماس . وتبادلا الحديث . كم كانت من طفلة لطيفة . وعند رؤية الوالدة النور الذي في أعين ابنتها تلاشى التشاؤم الذي ارتسم عليها . كانت أجمل وألطف طفلة في العالم . كما أن اللون الأشهل الذي في عينها لا يمكن وصفه . وشعرها الذي ما زال مجعَّداً ونظاراتها ، عدا عما وصفته والدتها . . .

قالت ألماس :

ـ تنعتني إحدى صديقاتي بـ« المُعاقة » . ولهذا أشعر بالحزن الشديد .

ـ لماذا تقول ذلك ؟

ـ أشرب الأدوية يومياً . لذلك تقول لي ذلك . ولكن هناك الكثير من الناس الذين يتناولون الأدوية مثلي في هذا العالم . . . وسيتخلَّصون من الأطباء قريباً . وسأواصل حياتي من دون أن أتناول الأدوية . . .

لم يكن من الصعب على السيد أحمد فَهْمَ ما يجري داخل عقل

ألماس . كان يقف بمقابل طفلة مرحة . فنظر إليها بإعجاب وهو يستمع إلى أفكارها عن المستقبل .

كانت الشكوى الأخرى عن شادي الذي سبق أن تكلَّم معه مرات عدة بشأن شغبه . ولكنه ليس من الأشخاص الذين يستوعبون الكلام بسهولة .

ـ حسنٌ ، لا تقلقي ، لا يفكِّر الجميع بنفس الطريقة .

سأتكلم مع شادي . ولن يقول لكِ شيئاً بعد أن أتكلَّم معه . . .

كانت ألماس ودودة . لمعت عيناها من جديد لتمنح النور للأشياء حولها . خرجت من المكتب كأنه لم يحدث شيء .

عندها قام السيد أحمد باستدعاء شادي إلى مكتبه . استمر شادي بالتصرف كأنه لم يفعل شيئاً . لقد كان من الواضح أنه اعتاد على القيام بمثل تلك الأفعال . إن جرى حادث ما ، فمن المحتمل أن شادياً يقف وراءَه أو قام بالمساعدة به .

ـ عزيزي شادي ، لماذا تقول لألماس أنها مُعاقة ؟

بدأ شادي بإنكار ذلك كما يفعل في كل مرة .

ـ لم أفعل ذلك . لم أقل أيَّ شيء . قال ذلك بنبرة صوت مقنعة .

استمع السيد أحمد إلى كلام شادي دون أن يقاطعه .

ـ إن إنكار ذلك لن يغيِّر شيئاً . هناك من يشهد أنك قمت بذلك . . .

عندما سمع شادي أن هناك شهوداً أصبح ليِّناً أكثر . ونظر إلى السيد أحمد محاولاً التراجع عما قاله .

ـ ولكن هي مَنْ قامت بالسخرية مني أولاً . لقد قالت إنني سمين .

نظر السيد أحمد إلى عيني شادي الذي تفادى النظر إليه . لقد كان شادي سميناً قليلاً . كانت خدوده ممتلئة . حتى ذقنه مدغدغة قليلاً . . . . لقد اعتاد الجميع على شغبه .

قال السيد أحمد :

ـ إذا بقيتم على هذه الحال بين أخذ ورد ، فلن نجد حلاً للأمر . إن ألماساً تستعمل الأدوية بشكل يومي ، ولذلك يجب عليها إحضار علاجها إلى المدرسة .

إن لم تحضره سيكون صعباً عليها الاستمرار بالعلاج . إن استخدام الأدوية بشكل يومي ليس شيئاً سهلاً . وأنت تعرف ذلك . . .

استمع شادي إلى النصائح بصمت من دون أيِّ اعتراض .

ـ إن كنت تستخدم الأدوية كل يوم ، هل كنت لتريد أن يقوم

أحدهم بالسخرية منك وإحراجك أمام الناس ؟

أجاب شادي من دون أن يرفع رأسه :

ـ كلا .

ـ علاوةً على ذلك ، ليس واضحاً متى يمكن أن يحدث هذا المرض . إذا حدث معك شيء كهذا لا سمح الله ، ماذا ستفعل ؟ إنه من الخطأ أن تقوم بالسخرية من الأمراض التي يعاني منها الناس أو من صفاتهم الجسدية . والأهم من ذلك أن مثل تلك الأفعال مخجلة .

استمع شادي إلى كلام السيد أحمد بانتباه . لقد أصيب بصدمة . لم يفكِّر بذلك أبداً . لو قام بالتفكير بتلك الطريقة لَمَا قال لها ذلك .

استمرَّ السيد أحمد بكلامه :

ـ انظر ، إنك تغضب ؛ لأنها تقول عنك سمين ، وتحزن من ذلك . أليس هذا صحيحاً ؟

ـ أجل ، لا أريدها أن تقول عني : سمين .

ـ حسن ، أنت أيضاً يجب عليك أن لا تقول أشياء من الممكن أن تحزن الناس .

ـ حسن يا معلمي . لقد فهمت ، أعتذر .

ـ لا يجب عليك أن تعتذر مني ، فكِّر جيداً بمن عليك الاعتذار له .

خرج شادي من المكتب حانياً رأسه . في حين بدأ السيد أحمد بانتظار ما سيحدث .

وبعد قليل دخلت ألماس من الباب مبتسمة ابتسامة عريضة . ورغم ارتدائها للنظارات الطبية فقد أنارت تلك اللمعة التي في عينيها الشهل الغرفة .

ـ لقد اعتذر شادي مني يا معلِّمي . وتعهَّد بأنه لن يقول لي أي شيء سيِّىء بعد الآن . كما لن يقول كلاماً سيئاً لأي أحد . وقال : أن المعلِّم أحمد أخبره عن الخطأ الذي ارتكبه .

فرح السيد أحمد لهذا ، وقال :

ـ إن أردت ، يمكنني أن أخبرك عن خطئك أنت أيضاً .

ـ لا يا معلِّمي لا حاجة لذلك .

ـ أعتقد ، أنك ارتكبت أنت أيضاً خطأً ما . ويجب عليك عدم السخرية من الصفات الجسدية لأيِّ شخص . إن صفاتنا الجسدية لا يمكننا التحكُّم بها . مثل لون عينيك الأشهل ليس أمراً بوسعك التحكُّم به .

فهمتْ ألماس ما أراد السيد أحمد قوله . وطأطأت رأسها كأنها

عرفت ما عليها فعله . ثم خرجت من الباب تريد الاعتذار من شادي .

علم السيد أحمد أن ألماساً ذهبت من أجل أن تعتذر . لأن ذلك الفعل يليق بطفلة ودودة وذكية مثلها . . .

ومنذ ذلك الحين لم تأت أي شكوى أخرى حول هذا الموضوع . . . فقط جاءت والدة ألماس من أجل أن تشكره وتخبره أن ألماساً قد بدأت تتفهَّم الأمور على نحو أفضل . ومن الممكن أن تكسب قلوب الأطفال بشكلٍ سريع . كما يمكن إحزانها بسرعة أيضاً . ولكن إن علموا ضرورة أن لا يكسروا قلوب بعضهم بعضاً ، فستزداد سعادتهم أضعافاً مضاعفة .

* * *

مسار التزلج

دخلت امرأة غاضبة إلى المكتب . كان شعرها أشقر اللون . وضعت مكياجها حديثاً . رشيقة . تلفت الأنظار إليها بملابسها الأنيقة جداً . تضع نظارات شمسية سوداء اللون وعريضة الإطار على شعرها الأشقر ليبدو كأنه إكسسوار خاص .

أخذت نَفَساً عميقاً لعدة مرات كأنها شخص مستعد ليبدأ سباقاً ما . ثم ابتلعت ريقها عدة مرات . وفجأة استجمعت قوتها ورتبت أفكارها قائلةً :

ـ المدرسة قذرة جداً ! لا يتم تنظيفها أبداً . كل الأماكن قذرة . . .

لم يعرف السيد أحمد ما سيقوله . وفكَّرَ في إمكانية أن بعض ما تقوله المرأة صحيح . لكن من غير الصحيح أنه لا يوجد مكان غير قذر . . .

سيكون من غير الملائم أن يرد عليها بطريقة حادة . من الواضح كونها غاضبة . وإن قال شيئاً يسبب الغضب سيزيد من غضبها أكثر .

ولن يمكنه أن يصمت أيضاً . هذا يعني أنه يجب عليه قبول جميع التهم التي وجهت إليه . قال السيد أحمد :

ـ تفضَّلي أيتها السيدة ، مرحباً بك .

لم تردَّ السيدة ، واستمرت فقط بنظراتها الغاضبة .

ـ تفضَّلي استريحي قليلاً .

جلست السيدة على مقعد الضيوف .

قال السيد أحمد :

ـ تفضَّلي الآن بالشرح ، ما هي المشكلة ؟

ـ كل يوم أُلبس ابني ثياباً جديدة وأرسله إلى المدرسة . وعندما يعود مساء يكون متسخاً .

فهم السيد أحمد سبب غضب السيدة . من المحتمل أن يكون ابنها أحد الطلاب الذين حذَّرهم مرات كثيرة من الزحف على الأرض ، وقال :

ـ ربما نظافة المدرسة ليست كافية . إن هذا مكان عام . لذلك عليه أن يكون حذراً هنا . إن كان يزحف على الأرض ، فمن الطبيعي أن تكون ثيابه متسخة .

قامت السيدة بالدفاع قائلة :

ـ إن ابني ليس غبياً ليقوم بالزحف على الأرض .

ـ لم أقل هذا . إنما الأطفال يحبون اللعب والركض. . .

في تلك اللحظة رنَّ جرس الاستراحة . واضطر السيد أحمد أن ينفِّذ مضطراً ما خطر على باله . ونهض أخيراً ، وقال :

ـ تفضَّلي لنرى الأطفال معاً .

نظرت السيدة نظرات غير مفهومة . لقد كان السيد أحمد جدِّياً . ثم نهضت ومشت معه بجانب الطلاب في الرواق . وحينما مروا بالرواق الجنوبي ، بدا المشهد كما قال السيد أحمد . كان الأطفال يزحفون على الأرض كأنهم يتزلقون على الثلج .

لم تصدق السيدة ما تراه أمامها . ثم سمعت صرخة واحدة تقول :

ـ عليٌّ !

تذكَّر السيد أحمد موقفاً مشابهاً لتلك الصرخة . كانت الحادثة التي جرت خلال فترة التسجيل في المدرسة . وتذكَّر ما قام به والد الطفل عليٍّ . وصاح الوالد موبِّخاً عليّاً الصغير . أما الآن فوالدته هي مَنْ تقوم بتوبيخه .

ولم تقم السيدة بالعودة . أمسكت يد طفلها وسحبته لجانبها . قامت بتوبيخه قائلة :

ـ هل أنت غبي ؟ كيف بإمكانك الزحف على الأرض ؟

ـ قال السيد أحمد : أيتها السيدة من فضلك لا تغضبي . يجب عليك أن تعلِّميه ضرورة عدم الزحف على الأرض فقط .

ثم قام بعد ذلك بمناداة عليٍّ وقال له :

ـ إن قمت بالزحف على الأرض ستحزن والدتك ، وستتسخ ثيابك كلها وتمرض . . . هل تريد أن تحزن والدتك ؟

قال عليٌّ :

ـ كلا . لا أريد أن أحزن والدتي أبداً . إن إحزان الأمهات هو من أسوأ التصرفات .

ـ حسن ، إذاً لقد اتفقنا .

ـ نعم ، لن أقوم بالزحف على الأرض بعد الآن . وسأحذِّر أصدقائي أيضاً .

مرَّت والدة علي بسرعة من الرواق من غير أن تقول أي كلمة . ثم خرجت من باب المدرسة وذهبت من دون تنظر خلفها . من المحتمل أن شعورها بالذنب مما قالته جعلها ترغب بالابتعاد من هناك بسرعة . . . .

ووفَّى عليٌّ بوعده . ولم يَعُدْ يزحف على الأرض . كما قام بتحذير أصدقائه ؛ لكي يبقوا بصحة جيدة . . . .

* * *

هناك جثة في المدرسة

ازداد عدد الحصص الدراسية اليومية في تلك السنة . وأوضحت الوزارة أنها فعلت ذلك لإيمانها بأهمية زيادة عدد الدروس للطلاب . وبناء عليه أصبحت الدروس تستمرُّ حتى وقتٍ متأخِّر من بعد الظهر . ونتيجة لتغيُّر الفصول ، أصبحت بعض الدروس الأخيرة تستمرُّ إلى أن يحل الظلام .

كان السيد أحمد يبقى في المدرسة حتى رنين الجرس الأخير لكونه مناوباً . حيث يقوم بإضاءة جميع الأنوار في المدرسة . كأن الظلام في الخارج يتسابق مع المصابيح في الداخل . ذات مرة ، وبينما كان جالساً في مكتبه يقوم بعمله اليومي ، صدر صوت ما . ثم بدأ الصوت بالانتشار في أرجاء المدرسة . وفي كل مرة كان الضجيج يصدر من مكانٍ مختلف .

وعندما صدرت الضوضاء مرة أخرى خرج السيد أحمد من مكتبه مسرعاً . وخطر على باله الآلاف من الاحتمالات . وأثناء مروره من الرواق رأى الطلاب يصرخون ويركضون يمنةً ويسرةً .

صرخ قائلاً : « توقفوا ! » ولكن دون فائدة . لم يكن لديه أدنى فكرة عن سبب اضطراب الطلاب . لقد كانوا يركضون كأنهم هاربون من شيء مرعب . علاوةً على ذلك ، كانوا يزيدون الضوضاء أضعافاً . وتمنَّى في لحظة أن يقوم بإغلاق آذانه . إذ لم يستطع التحمل ؛ لأن الضوضاء كانت في كل مكان. . . لا يوجد غير الاضطراب . يبدو أنَّ تدافع المعلِّمين المناوبين لم يكن كافياً . حيث ازداد جنون الطلاب . ولم يفهم هل أصاب هؤلاء فيروس ما .

لو سمع أحدهم من الخارج تلك الضوضاء ـ لا سمح الله ـ لأطلق عليها اسم المدرسة المشاغبة . ومن الممكن أن لا يشرحوا لأحدهم حقيقة الأمر ، ويبقى اسمها المدرسة المشاغبة .

يجب عليه فعل شيء ما . لذلك توجَّه فوراً إلى غرفة المعلمين . حيث بدا واضحاً أنهم في حالة ارتباك وخوف . ولم يقدِّموا له نصيحة لما يجب عليه فعله أيضاً .

وعند دخوله غرفة المعلِّمين تقابل السيد أحمد مع أحد الأساتذة وقال مبتسماً :

ـ يا معلِّمي ! هناك اضطراب ما في صفوف الطلاب . لذلك هم يصرخون ويركضون بجنون . هل من الممكن أن يقوم أطفال صغار بفعل ذلك ؟

ـ ما سبب ذلك ؟

ـ لقد انتشر خبر وجود شبح في الطابق الأرضي . لذلك هم يصرخون .

تبسَّم السيد أحمد . ولم يعلم إن كان عليه البكاء أو الضحك .

ـ لنقوم بشرح هذا الأمر للطلاب . ونخبرهم أنه من المستحيل حدوث ذلك . وإلا ستستمرُّ هذه الضوضاء لفترة طويلة . وإن انتشر هذا الخبر بشكل أكبر سيصبح الأمر أسوأ ، وأنتم أعلم بذلك .

خرج السيد أحمد من غرفة المعلِّمين والصخب مستمرٌّ . كما ارتفعت أصوات الأطفال ، حتى أنه أصبح من الممكن سماعها من الخارج . أراد أن يتجه إلى إذاعة المدرسة فوراً . وعندما بدأ بنزول السلالم قام بعض الطلاب بالالتفاف حوله يريدون قول شيء ما .

واصطحبهم معه إلى غرفة الإذاعة من أجل أن يفهم بوضوح سبب ذلك الاضطراب .

كان عددهم بين الخمسة أشخاص والستة .

وقال السيد أحمد ذلك مستمعاً لهم :

ـ اشرحوا لي الأمر .

بدأ الطلاب بشرح ما سمعوه بحماس .

İSRAF
ETMEYELİM

قال أحدهم :

ـ يوجد جثة تحت المدرسة .

وقال آخر مصحِّحاً كلامه :

ـ بل في الطابق الأرضي .

ثم قال أحد الطلاب ووجهه شديد الاحمرار بسبب توتُّره :

ـ يا معلِّمي لقد مسَّ الشياطين المدرسة .

وأضاف آخر :

ـ يا معلِّمي يوجد ضريح تحت المدرسة وأراوحهم موجودة في الطابق الأرضي .

. . . .

لم يفهم السيد أحمد كلام الطلاب المصدِّقين لذلك ، رغم وجود عدَّة روايات مختلفة .

لم يعلم إن كان عليه إيقافهم عن كلامهم الحماسي أو جعلهم يستمرون . وكلما تكلموا أكثر قاموا بإضافة المزيد على الرواية .

سأل السيد أحمد :

ـ حسنٌ من رأى ذلك ؟

نظر الطلاب إلى بعضهم بعضاً .

لم يره أحد . كان يقولون فقط ما سمعوه . كما لم يكن معروفاً من قال ذلك بالضبط .

ـ أيها الأطفال ، إن هذه المدرسة موجودة في هذا المكان منذ سنوات طويلة . هل من الممكن أنه طوال تلك الفترة لم يظهر شيء ، ولكنه ظهر اليوم .

قال ذلك مبتسماً .

رغم أن الابتسامة في ذلك الوقت لم تكن شيئاً سهلاً . لكنه ضحك لما قام الأطفال بشرحه .

أخذ مكبِّر الصوت وبدأ كلامه بنبرة حادة قائلاً :

ـ إعلان إلى الطلاب ، هنالك من قام بإخباركم بأشياء من أجل إخافتكم . إنَّ أياً من تلك الأقاويل غير صحيح . لا تصدقوهم . إن كان هناك من رأى أو قابل شيئاً ما فإنني أنتظره في غرفة الإذاعة .

توقَّف الصخب في المدرسة فجأة . وخيَّم الصمت عليها . ثم سيطرت على المدرسة حالة من السلام .

وبعد عشر دقائق ، بدأ السيد أحمد مرة أخرى بالكلام قائلاً :

ـ كما رأيتم ، لم ير أحد أيَّ شيء . لا تستمعوا إلى مثل تلك

الأقاويل . إن قول مثل تلك الأشياء ونشرها ليس عملاً صحيحاً ، إنه عار وإثم . أعتقد إن رؤيتكم بتلك الحالة أمر يسعدهم . لا تصدِّقوا مثل تلك الأقاويل . إن المدرسة لم تتغيَّر . ولم يحدث أي تغيير . ولا يوجد جثة أو شياطين . . . وأتمنى التوفيق للجميع . . .

وبعد خطاب السيد أحمد ذي النبرة التحذيرية لم تصدر أيُّ إشاعة أخرى . وتابع الجميع دروسه ، كما كان الوضع عليه سابقاً .

* * *

جُنّ المعلّم

اقترب العام الدراسي من نهايته ، وتخلَّص المعلِّمون من ستراتهم وربطات عنقهم أيضاً . ولم يَعُدْ هناك أيُّ شيء يمنعهم من ارتداء الملابس المريحة . كما أصبحوا يأتون إلى المدرسة وهم يرتدونها ، كانت ملونة أيضاً .

تراجع اهتمام الطلاب بدروسهم بسبب اقتراب العطلة وارتفاع درجات الحرارة . مما يتطلب أن يكون أداء المعلِّمين أفضل . ولكنهم يملُّون أحياناً . وفي معظم الأحيان كانوا يستشيرون أحد الإداريين ويطلبون المساعدة منه . كان السيد أحمد من ضمن هؤلاء الذين يأتون إلى الصف . ويمكن القول أنه كان يفهم لغة الطلاب جيداً . وعلموا أنه ينجح بشكل من الأشكال في التواصل مع الطلاب .

وكان يكافح من أجل اكتساب بعض الطلاب الذين لا يفهمون الكلام الجميل ، ولا يستمعون إلى النصائح والسلوك الحسن . كما كان على دراية تامة أن عمله هذا لن يذهب عبثاً . لذلك كان الطلاب تارة وأولياء الأمور تارة أخرى يشكرونه .

ثم بدأ الصف بالاضطراب . كان سبب ذلك هو خلاف بين بعض الأصدقاء . ولكن لم تكن وساطة المعلِّم كافية ، وعجز عن مصالحتهم . وعندما لم تنفع جميع تحذيرات المعلِّم قام بتهديد الطلاب بإحالة هذا الأمر إلى مجلس الانضباط . وعندما لم ينفع ذلك أيضاً أصابه الجنون .

وأدرك المعلم ضرورة الخروج من الصف والذهاب إلى مكتب مساعد المدير من أجل إيجاد حلٍّ ما .

وبعد خروجه قال الطلاب :

ـ لقد جُنَّ جنون المعلِّم .

حينما يصيب الجنون معلِّماً هادئاً ، فهذا يعني أن الوضع كان خطيراً جداً . استمع السيد أحمد إلى كلام المعلِّم بانتباه . فقد كان المعلِّم غاضباً . وبدا ذلك واضحاً من كلامه حيث قال :

ـ لم أر مثل ذلك الوضع طوال مسيرتي التعليمية . إنهم لا يسمعون الكلام ، ولا يهتمون بدروسهم .

قال السيد أحمد :

ـ تفضَّل بالجلوس أيها المعلِّم الفاضل .

ثم طلب إحضار فنجان شاي من أجله . وبينما كان المعلِّم يشرب الشاي دخل السيد أحمد إلى الصف .

عند رؤية البعض دخوله قالوا :

ـ لقد انتهى أمرنا . سيرسلنا جميعنا إلى مجلس الانضباط الآن .

في حين ابتهج البعض الآخر لقدومه . لأنهم يعلمون أن السيد أحمد لن يتردَّد في فعل ما هو ضروري لمن يستحق ذلك .

أغلق الطلاب عيونهم مراراً وتكراراً . وحاول كل طفل جذب الانتباه إليه . كما كانت ملابس البعض غير متناسقة . فقد شعر هؤلاء بالخجل من قدوم السيد أحمد .

بدأ السيد أحمد بالتفتيش على من قص شعره قصيراً جداً . لأنه مع قدوم فصل الصيف كان الطلاب يقومون بذلك تماشياً مع الموضة السائدة . وكانت الملابس الصيفية والألوان الفاتحة منتشرة . كما كانوا يلبسون أحذية الكتان في أقدامهم . وكانت ملابس بعضهم تجذب الانتباه حقاً . حيث ارتدى عليٌّ بنطالاً أبيضَ جيوبه ممتلئة بالكرات . وفي كل استراحة كان يلعب بها مع الأطفال الأصغر منه سناً .

وبذلك استمرت جيوبه تمتلىء بالكرات التي أخذها منهم . وعندما يمشي تُسمع أصوات طرطقة بعضهم ببعض . يمكن لمحبي لعبة الكرات أن يضحوا بأرواحهم من أجل أن يحصلوا عليها . في حين كانت جيب طفل آخر ممتلئة بأوراق اللعب الجديدة . . .

ولحسن الحظ ، لم يهتمَّ السيد أحمد بالملابس . وحينما بدأ الكلام بدا واضحاً أنه يهتمُّ لموضوع آخر . لم يكن من السهل على المعلِّمين أن يتعاملوا بلطافة مع هذا الشغب . كما لم تكن تصرفات بعض الطلاب كما يعتقد أولياء أمورهم . إن تعليم الإنسان مهمة صعبة ويتطلب مسؤولية كبيرة . كان السيد أحمد مدركاً لذلك فلم يقل سوى :

ـ لماذا ؟

لم يصدر من أحد أيُّ صوت . وبقي الجميع صامتين محدِّقين بمقاعدهم . كانوا يعتقدون أن السيد أحمد سيقوم بتوبيخهم وأنهم سيستحقون ذلك .

ابتسم السيد أحمد . وحين رأى الطلاب ذلك ، بدت الراحة واضحةً على وجوههم . ثم تحدث السيد أحمد مع الطلاب الذين نظروا إليه نظرة تعاطف قائلاً :

ـ أعتقد أنه لا يجب تذكيركم بواجباتكم . وهي الدراسة . والاستماع إلى معلِّميكم من أجل الإعداد لمستقبلكم .

إن مستقبل البلاد بأيديكم. . . لأنكم أنتم من يسير نحو ذلك المستقبل ، كما ستوحِّدون طاقاتكم وقواكم ومعارفكم ، وسيكون لديكم رأيٌ في مصير البلاد . إنكم جزء من هؤلاء الطلاب

المستعدِّين لتقديم تلك الخدمات العظيمة .

ما هذا الذي كان السيد أحمد يتحدَّث عنه . كان مستحيلاً فَهْمُ شيء من تلك المواقف لدى الكثير من الطلاب الذين لا يرون تلك الميزة في أنفسهم .

قال السيد أحمد مدركاً لذلك :

ـ ثقوا بأنفسكم . إن لم تفعلوا كيف سيثق بكم الآخرون ؟ إن عصرنا هو عصر العلم والتكنولوجيا . وإن استمرار ذلك يعني ارتفاع مستوى الثقافة . كما أن مهمتكم في المدرسة ليست فقط النجاح في صفوفكم . بل مهمتكم الأساسية هي أن تكونوا فاعلين ، ومفيدين ، والحجر الأساسي في بناء مجتمع ذي ثقافة عالية ، وأن تكونوا أشخاصاً موهوبين . كما يجب عليكم أن تحبوا معلِّميكم ومدرستكم من أجل أن تنجحوا بذلك .

لقد تسببتم بالحزن لمعلِّمكم . ولا يليق بكم فعل ذلك بمن يكافح من أجلكم . لا تتصرفوا بتلك الطريقة . لقد حزن معلمكم جداً . سأكتفي بكلامي هذا . وسأترك لكم معرفة كيفية التعامل مع الأشخاص الذين يقومون بتعليمكم .

خرج السيد أحمد من الصف من دون أن يلتفت وراءَه . فقد كانت رؤية الطلاب أنهم تسببوا بالحزن للسيد أحمد أكبر درس

لهم . ومنهم من أراد أن يركض خلفه ويعتذر منه .

وعندما دخل المعلِّم إلى الصف مرة أخرى كان الصف مختلفاً تماماً . كان هادئاً جداً ، والطلاب يستمعون إلى الدرس . . .

فوجىء المعلِّم كثيراً . كأن الصف الذي دخل عليه منذ قليل صف مختلف . من المحتمل أنه أخطأ في الصفوف .

وبعد قليل استأذن أحد الطلاب في الكلام ، وقال :

- يا معلِّمي . أعتذر منك بالنيابة عن أصدقائي جميعاً ، وأتمنَّى أن تسامحنا .

فوجىء المعلِّم جداً . ومما زاد مفاجئته أن مَنْ قام بالاعتذار هو أحد الطلاب المشاغبين . ثم قال أحد الطلاب الجالسين في مؤخِّرة الصف بصوت واضح :

- لعلمكم ، لقد علمنا السيد أحمد درسنا بطريقة فعالة للغاية .

واستمع الطلاب لدرس جميل . والجميع كان مرتاحاً . ثم استمرَّ بعد ذلك بنفس الوتيرة . وتوجَّه المعلِّم إلى غرفة السيد أحمد وأخبره مسروراً بما جرى في الصف .

* * *

الوداع

ارتفعت درجات الحرارة بشكل كبير . لم يكن هناك طالب لا يعتقد أنه يستحق عطلة جيدة . كما لم يكن بوسع الجميع التعبير عن المشاعر نفسها بقدوم اليوم الأخير من المدرسة المستمرَّة منذ أشهر طويلة . لقد حان الآن وقت الراحة والعطلة .

لا يمكن تجاهل الحزن الموجود أيضاً . كان بعض الأصدقاء يعانقون بعضهم ويبكون . ومنهم من كان ينظر إلى بعضهم بعضاً بنظرات حزينة . كان الانفصال سبباً لذلك الوضع المحزن . لأنه من الصعب الكلام عن أولئك الذين لن يروا بعضهم بعضاً طوال العطلة الصيفية .

انتشر أولياء الأمور في كافة أرجاء المدرسة . كانوا ينتظرون بفضول تقديم بطاقات التقدير لأطفالهم . وفي أثناء ذلك يمكن رؤية الأصدقاء من صفوف مختلفة يتقابلون ويودِّعون بعضهم بعضاً .

إن الانفصال صعب . كما أن تغيير العادات صعب أيضاً . غير أن الوضع بالنسبة لطلاب الصفوف الأخيرة كان أصعبَ . فهم

حزينون ؛ لأنهم سيبتعدون عن المدرسة التي درسوا فيها سنوات طويلة ، وعن الأصدقاء الذين تعرَّفوا عليهم ، ومن المحتمل أنهم لن يتقابلوا معهم مرة أخرى .

كلما طالت مدة حفلة الوداع كان الوضع محزناً أكثر برفقة معلِّميهم الذين كانوا دائماً بجانبهم طيلة تلك السنوات الصعبة . ولكن ذلك لم يمنع من تقديم المعلِّمين النصيحة الأخيرة لهم . فقد كانت نصيحتهم بمثابة ملخَّص لما قالوه لسنوات ، وهي :

ـ ثقوا بأنفسكم . ضعوا خطة خاصة بكم ، تابعوا السير على تلك الخطة التي وضعتموها من أجل تحقيق أهدافكم . ادرسوا جيداً ، واقرؤوا الكثير من الكتب . وكونوا أناساً صالحين . وافعلوا أشياء مفيدة . . .

كان هناك ترقُّب في المدرسة من نوع مختلف . فقد كان الجميع بانتظار شيء ما الطلاب ، والمعلِّمون وأولياء الأمور . . .

وفي تلك الأثناء كان بعض أولياء الأمور يقفون بين كرسي المعلِّم واللوح منذ وقت طويل . ومنهم من قام بالاصطفاف على طول الرواق ابتداء من أمام الباب يتحدَّثون مع بعضهم بعضاً ، في مواضيع مثل كونهم متأكِّدين من نجاح أطفالهم ، إضافة إلى أنهم لا يجدون كلاماً لوصفهم ، وأن أطفالهم بالحقيقة أذكياء جداً ، ولكنهم

لا يقدِّرون ذلك ، ولا يدرسون ولا يهتمون بدروسهم .

وبطبيعة الحال ، كان بالإمكان رؤية من يقوم بالثناء على المعلِّمين والإداريين أو مَنْ يقوم بذمِّهم وهجائهم .

انتشر في كل مكان صوتٌ صادرٌ من إذاعة المدرسة يقول :

« أيها الطلاب الأعزاء ، اليوم ستأخذون تقارير علاماتكم وترون نتائج أعمالكم طيلة العام الماضي » .

عندها سمعت صرخات البهجة في كافة أنحاء المدرسة .

وتابع الكلام قائلاً :

« لقد انتهت المدرسة ، ولكن لم ينته التعلُّم . وهو مستمرٌّ . . . لأنه لا يوجد عمرٌ محدَّد للتعلُّم . وعلينا أن نسعى من أجل تحقيق هدف ما حتى الممات . بالنسبة لنا فإن مطالعة الكتب في كل مكان وكل زمان أمر لا يمكننا الاستغناء عنه . . .

أيها الأولياء الأعزاء ، لا تغضبوا بسبب علامات أطفالكم الضعيفة المذكورة في تقرير علاماتهم . اعملوا على تعويض ما ينقصهم ويجعلهم ناضجين . . .

يمكنكم أيها المعلِّمون الآن البدء بتوزيع تقارير العلامات » .

ومع انتهاء هذه الجملة عمَّت صرخات البهجة مرة أخرى في المدرسة . وبدأ الاضطراب في كل مكان .

كما انتشر الحماس الموجود بين الصفوف إلى الممرات . كان بعض الطلاب بانتظار حدوث مفاجآت جميلة . لربما تُعطى علامات لصالحهم في اللحظة الأخيرة . ولكن تلك التوقُّعات تلاشت أمام العلامات المدوَّنة على التقارير التي ستمنح .

ثم أجرى المعلِّمون محادثة أخيرة مع الطلاب قائلين :

« أحبائي الأطفال . إن طفولتكم ، وعقلكم ، وقلبكم ومشاعركم هي أنقى ما في هذه الدنيا . . .

لقد أتممنا اليوم معكم عاماً دراسياً آخر .

لقد حان الوقت وقد تعبتم . الآن عليكم البدء من جديد . فكل نهاية هي بداية جديدة . إنكم باقون في الأذهان . لن ينساكم المعلِّمون أبداً . وأتمنى أن لا تنسوهم أنتم أيضاً ؛ لأن بيننا رباطاً قوياً مثل التعليم . . .

تذكَّروا ، لتبقى أهدافكم وأحلامكم نصب أعينكم دائماً . ولتجدوا مكاناً في قلوبكم الكبيرة من أجل كل شيء جميل في هذه الدنيا ؛ وستكونون أنتم أهم المنتجين لأوطانكم في العلم والثقافة والفن . وينبض قلبكم بعشق ذلك . . .

ولا تنسوا أن تحمدوا اللهَ على نعمه القيِّمة . وإن شكرتم الله وصبرتم سيزداد نجاحكم ويستمر . . .

أحبوا أفراد أسرتكم . لأنه لا يمكن أن نكون سعداء وناجحين من دون عائلتنا . . . . إن آباءَكم وأمهاتكم يتعبون من أجلكم ، ومن أجل نجاحكم وسعادتكم . إن الحب هو أجمل المشاعر . أحبوا الناس وجميع المخلوقات . . . .

وسأعانقكم جميعاً بهذه المشاعر والأفكار عن الحب . . . » .

ودَّع الطلاب معلِّميهم مقبِّلين أياديهم . وسامح الأصدقاء بعضهم بعضاً عما صدر منهم من أخطاء وظلم . كما تعانق المتخاصمون وتسامحوا . . .

وبعد قليل ، انتشر الطلاب الموجودون داخل الصفوف في الممرَّات . وكان الاختلاط بين الأولياء والطلاب يستحق المشاهدة .

فقد أصبحت حديقة المدرسة مزدحمة للغاية . وكان الطلاب المماطلين يمضون بعض الدقائق الأخيرة معاً قبل خروجهم من حديقة المدرسة ، ويعانقون بعضهم بعضاً بحسرة .

كان من الضروري معرفة ما يحدث في إحدى زوايا المدرسة . فقد كان شادي واقفاً أمام باب المدرسة يعتذر عما بَدَرَ منه تجاه الجميع بغضِّ النظر عما فعله معهم ، ويطلب السماح منهم . وكانوا سعداء بذلك ، وازداد حبهم لشادي وتعهَّدوا بأن يبقوا أصدقاء معه . . .

كانت الجمل الصادرة من أفواه الطلاب تشبه بعضها بعضاً كالقول :

ـ سنتقابل العام القادم .

ـ أستودعكم عند الله . إلى اللقاء . . .

أما الراحلون نهائياً عن المدرسة ، فكان يقولون بصوت يدعو للحسرة :

ـ الوداع .

ـ الوداع . . . .

* * *

المحتوى

أيام التسجيل 5

فردوس 8

علي ووالده 14

بعيون راجية 18

مقال صحفي 21

المعلمون 25

البدلة 31

صباح الخير 37

الفزاعة الحزينة 43

طريق المدرسة 50

الدرس الأول 54

الاستراحة 58

الأسبوع الأول 60

المقلمة 63

صف آخر 65
لا معلم في الصف 69
الدراسة 80
الاعتذار 85
معرض الدفاتر المدرسية الأول 89
عيد الأم 94
طابور المقصف 101
هنا مدرسة مشاغبة 106
مسابقة قراءة الكتي 115
يوم عرفة 121
صباح العيد 129
ضاع الهاتف 136
طالب فوضوي 143
يلماز طالب عجيب 146
توزيع الميداليات 150
الفتاة العمياء 154
ليست معاقة 162
مسار التزلج 172

هناك جثة في المدرسة 176
جُنَّ المعلم 182
الوداع 188
المحتوى 195